محمود السعدنى

مصر من تانى



طولى .. وطوبة

● ● من المآسى ما يمتد فى بطن التاريخ عدة مئات من السنين . ولكن أخطر مأساة فى التاريخ . ان كل خليفة حى هو مصدر الحكمة وينبوع المعرفة ونموذج الكمال . وهو يظل كذلك حتى يموت . فإذا مات ، فهو منبع الجهل ومصدر الظلم والنموذج الأكبر للفساد والاستبداد . مأساة حقيقية ، ولكن سببها الخليفة نفسه . لأن نمط الحكم العربى يجعل من الخليفة أو الوالى أو السلطان الملك المعصوم ، فلا يسمح لأحد بانتقاده وهو حى يرزق . مسموح للجميع بأن يبالغوا فى مدحه وفى حصر مآثره . وفى تسليط الضوء على مواهبه ، والاعتراف بعبقريته ، وتدور الاسطوانة على هذا الوجه مادام الخليفة حيا ، فإذا مات الخليفة ، قلبوا الاسطوانة على الوجه الأخر ، وهى دائما عكس الوجه الأول ، وبينهما مسافة لاتقل بعدا عن المسافة بين الأرض والمريخ ! ولذلك فكرنا ولله الحمد ـ ان نلقى نظرة على تاريخ مصر من تانى . نظرة رجل من الشارع غير متخصص وغير كمسارى وعلى غير علاقة رسمية بالتاريخ . وسنعيد النظر من جديد وفى هدوء على التاريخ كله ، بعد ان مات الخلفاء والسلاطين والأمراء والكمسارية والبصاصون . وسنحاول أن نجرد التاريخ من السلطة ومن أبهة الحكم ومن أجهزة المباحث والمخابرات . وهو على كل حال اجتهاد من جانبنا ، ان اصبنا كان لنا اجر المجتهدين ، وان اخطأنا كان لنا أجر المجتهدين المخطئين . وسيكون الفرق بيننا وبين المؤرخين الكمسارية ، أن مصر فى نظر المحترفين هى سلسلة طويلة من الأمراء والملوك والسلاطين ، ولكنها فى نظر العبد لله مجموعة متصلة من الأجيال والصياع واصحاب الحاجات والمتشردين . مصر فى زمن السلاطين لم تكن قلاوون أو قطز أو عز الدين أيبك التركمانى أو على بك الكبير . ولكنها كانت الزعر والحرافيش والحشاشين . ومصر أيام عبدالناصر لم تكن هى الرئيس ونوابه ، ومدير المخابرات واجهزة الاتحاد الاشتراكى . ولكنها كانت العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والجنود والمثقفين . ومصر فى عهد السادات لم تكن هى الرئيس أو زعماء المنابر ، أو تجار الشنطة واصحاب بوتيكات شارع

الشواربى واصحاب الكباريهات ورواد الحانات . ولكنها كانت ايضا هى ملايين الشحاتين والمتسولين والذين يعانون المرض وخيبة الأمل والجوع . انه تاريخ الشعب المصرى فى الواقع وفى الحقيقة وعلى المكشوف وعلى عينك يا تاجر . ونرجو الا يغضب منا احد . فنحن لانقصد الا وجه الحقيقة . ولانهدف الا تعرية الواقع . ولانرجو الا عفو الجبار . فالتاريخ ليس أكثر من اخبار قديمة . ولكنها قد تتطابق احيانا مع ما يجرى اليوم من أحداث ، أو قد تكون هى السبب فيما يدور اليوم من امور . وهذا هو الفرق الوحيد - ربما - بين الحيوان والانسان . فالانسان - على رأى أحمد بهاء الدين - حيوان له تاريخ ! ولكى يكون الانسان انسانا بحق . فينبغى أن يعرف تاريخه بلاتزويق ولا رتوش ! ولعل ذلك هو السبب الذى جعل منا نحن العرب اقل مرتبة من بعض الناس . فالانجليز مثلا يعرفون تاريخهم بالضبط ، ويعرفون خباياه بالتحديد . ولكن تاريخ العرب فى مجمله يقف عند خبر ان كل السلاطين فى غاية العدل ، وكل الامراء فى غاية الأدب ، وكل الحكام على حق وكل الشعب فى منتهى الوقاحة والاجرام ! وعلى اية حال ، سنبدأ على بركة الله . وارجو ان ننتهى على بركة الله ايضا . ونسأل المولى العزيز التوفيق للوصول الى الحقيقة للكشف عن المستور وان نكون عند حسن الظن وعلى مستوى العمل الكبير . ونطلب من الله أن يبعدنا عن أيدى العسس . وان يخفينا عن أعين البصاصين . وان يحيينا صياعا ويميتنا صياعا ، ويحشرنا يوم القيامة فى زمرة الذين هم على باب الكريم .

طوبى للصياع . وطوبى للمتشردين و .. طوبة للبصاصين والمخبرين ! ● ●

محمود السعدنى

الفسطاط .. لماذا ؟

تاريخ العالم هو تاريخ السلطة .. لأن التاريخ - مع الأسف الشديد - لايهتم بالشعوب . ولايحترم الضعفاء ولايتعقب المغمورين ! ولهذا السبب أيضا . فالتاريخ اكثره مزيف ومزور واغلبه اكاذيب . لأن الذى يكتب التاريخ هو السلطة .. ولذلك . ستجد أعداء السلطة دائما على خطأ . والحق دائما فى جانب السلطان ! والويل دائما للمهزوم لأن التاريخ من اتباع المنتصر وهو من حشم السلطان . وفرد من طاقم خدم الوالى .

عندما انهزم عبدالله بن الزبير نعتوه بأحط النعوت . ووصفوه بأحقر الأوصاف . عندما قتل الحاكم بأمرالله . رموه بالجنون . اشاعوا عنه انه حال بين النساء وبين ارتداء الكعب العالى . وانه حرم اكل الملوخية . وانه أمر الناس بالعمل ليلا والنوم نهارا ! مع انه كان واحدا من أعظم حكام مصر . وخادما من خدام الحقيقة . وفارسا من فرسان الفكر ودرويشا من دراويش الحياة ! وعندما هرب نابليون من منفاه فى جزيرة البا . كانت مانشيتات صحف باريس خلال أربعة ايام متتالية على النحو التالى : هروب المجرم . الخائن يصل الى الشاطىء . المخرب يزحف نحو باريس . البطل فى باريس ! وهتلر يعرفه العالم الآن على انه الرجل الوحش . مصاص الدم . اكل لحوم البشر . احقر من ولدته أمرأة . عدو البشرية رقم واحد ! ترى كيف ستكون صورته لو انه هو الذى انتصر ؟ أغلب الظن انه كان سيصبح محرر الشعوب وحامى حمى الاسلام ! وبالقطع كان الجنون سيكون من نصيب تشرشل .. والخرق هو طابع ديجول . والخيانة هى حرفة روزفلت ! احيانا . ينصف التاريخ بعض المهزومين . من هؤلاء مثلا عمنا المارشال روميل . صحيح انه انهزم . ولكنه ظل حتى الآن اشهر قائد انجبته الحرب العالمية الأخيرة ! وعبدالناصر لم ينهزم . ولم يفقد السلطة وهو حى . ولكنه فقط توفى الى رحمة الله . ولكن لأنه مات فقد لعنوا سنسفيل أجداده والصقوا به كل تهمة . ورموه بكل نقيصة . مع اننا جميعا . الذين نسمع الشتائم ونقرأ سيل الاتهامات . كنا أحياء نرزق

ونصفق لأمجاد عبدالناصر وانتصاراته وشموخه العظيم : ومأساة عبدالناصر ليست هي المثال الوحيد على استرزاق كتبة التاريخ . فقد تكررت كثيرا في تاريخ مصر الحديث والقديم . وتكررت كثيرا في تاريخ الامبراطوريات العربية . سواء في القاهرة أو في دمشق . عندما قتل محمد بك أبوالدهب سيده على بك الكبير . الغى كل القوانين التى سنها سلفه . ورد الأموال والأملاك المصادرة الى اصحابها . عفا عن المنفيين خارج مصر . وسب سيده واتهمه بكل رذيلة . مع ان التاريخ الحقيقى يقول لو أن على بك الكبير استمر في السلطة لتغير تاريخ مصر . لأن على بك الكبير هو أول من حاول بناء الدولة المصرية في العصر الحديث . وفي سبيل ذلك شرع في اتخاذ اجراءات اجتماعية حاسمة . فأمم الأرض الزراعية وصادر الثروات التى تراكمت نتيجة احتكار السلع والاتجار في السوق السوداء وأسس جيشا وطنيا . واقام أول مصانع للسلاح . وشهدت مصر في عهده حالة من الاستقرار والرخاء . دفعته الى التفكير في غزو تركيا نفسها وهدم الخلافة الاسلامية ونقلها الى القاهرة . ولكن المؤامرة قطعت الطريق على على بك الكبير . وكان نائبه وساعده وقائد جيشه محمد بك أبوالدهب هو الذى تولى القيام بأهم دور في المؤامرة . ولذلك تأخر نهوض مصر فترة من الزمن . حتى جاء محمد على باشا الكبير . فسار على درب على بك الكبير . واستطاع ـ رغم كل شيء ـ تأسيس الدولة المصرية الحديثة . وعندما احتدمت المعركة بين الجيش المصرى وجيش ابن عثمان في معركة مرج دابق وانهزم سلطان مصر قنصوه الغورى . وصارت مصر نيابة سلطنة . ودخلت تحت حكم السلطان ابن عثمان . تولى خاير بك منصب نائب السلطان العثمانى . وكان يشغل نفس المنصب في أيام سلطان مصر قنصوه الغورى . وذلك سماه العامة خاين بك بينما اطلق عليه كتبة التاريخ وصف منقذ مصر . ووصفوه بالحكمة والحصافة ورجاحة العقل . ويقول عمنا ابن إياس (وبعد أن تحققت هزيمة السلطان قنصوه الغورى وضاع ملكه . التفت الحاشية القديمة حول السلطان ابن عثمان . يقدحون في سيدهم السابق ويقبحون أعماله ويسفهون اراءه . والصقوا به كل دنية ورموه بكل نقص . مع ان لحوم اكتافهم كانت من خيره . والخير الذى كانوا يرفلون فيه من فضل نعمته) . وعندما مات الخليفة الاموى في دمشق ابلغ الحاجب ولى العهد الوليد بن عبد الملك بنبأ موت الخليفة وكان يعيش منفيا في إحدى القرى الواقعة بين العراق والشام فأمر ولى العهد بأن توضع كل متعلقات دار الخلافة في حرز حريز حتى يعود الى دمشق من

منفاه ولكن الخليفة المتوفى استيقظ فجأة فى المساء وتبين انه كان فى اغماءه طويلة . وبعد ان تململ فى فراشه وتلفت حوله طلب شربة ماء . فجاءه الخادم بشربة الماء فى كوز من الصفيح . وكان للخليفة طاسة من الذهب الخالص يشرب فيها الماء . فطلب الطاسة الذهب ليشرب فيها . ولكن الخادم اعتذر له لأن الخليفة الجديد أمر بتحريز الطاسة مع متعلقات الخليفة ، وأمر بعدم استعمال أى شىء منها . فلما سمع الخليفة القديم ما قاله الخادم شهق شهقة طويلة وفارق الحياة . وقبل ان يتمكن من أن يشرب شربة الماء ! انه تاريخ طويل ولا أعتقد أن احدا لديه صورة دقيقة عن أحوال مصر لحظة دخول عمرو بن العاص . وليس بين أيدينا الا وصف لمعارك ، وأخبار لبطولات ! ولكن الشىء الأكيد ان فتح مصر خلصها من قبضة حكم رومانى متجبر ولا يرحم . ولا ندرى ما الاسباب التى جعلت عمنا عمرو بن العاص يختار هذا الجزء على ضفة النيل فى مواجهة الجيزة لاقامة عاصمة الدولة الجديدة ، وقيل فى تبرير هذا الاختيار انه اختار مكانا يتوسط الوادى . وقيل ايضا انه تفاءل عندما باضت الحمامة على خيمة القائد فأمر بأن تقام العاصمة فى المكان نفسه ! ولكن الحقيقة ان عمرو بن العاص اختار المكان الأفضل لقيام عاصمة . وهو فى الواقع لم يكن اختيارا ولكنه كان فرضا . ففى مواجهة المكان الذى اختاره . وعلى شاطىء النيل فى بر الجيزة ، قامت أزهر وأشهر عاصمة لمصر فى العهد القديم . منف ! كما انه على بعد مرمى حجر من المكان الذى حدده عمرو كانت تقوم عاصمة الأقباط المصريين حول قصر الشمع . واذا كان الرومان قد اختاروا الاسكندرية عاصمة لمصر فإن ذلك الاختيار لم يكن موفقا ، ولم يكن نتيجة لدراسة أو بحث . وانما كان استجابة لنداء عاطفى عند الرومان . فهى مدينة ساحلية وايضا شديدة الشبه بنابولى ، وهم فى بلد كهذا لا يشعرون بالغربة ولايعانون الحر فى داخل البلاد ! المهم ان عاصمة عمرو قامت وازدهرت بسرعة ، واختار لها اسم الفسطاط ، وهى كلمة رومانية « فوسطيطوس » ومعناها المعسكر ! وحول جامع عمرو بن العاص نشأت المدينة وترعرعت . وكانت أسواقها عامرة وتجارتها نشطة وحركة السياحة فيها على ودنه .

وشهدت فترة من الزمان كان فيها العدل المطلق هو الدستور ، وعبارة لا إله إلا الله هى الشعار . نعم ، لا إله إلا الله . فكل الناس عبيده . الخليفة والوالى وصاحب الخراج والقاضى والجميع . وكان عمر بن الخطاب . الذى كان العدل دينه يحكم من المدينة المنورة امبراطورية مترامية الأطراف ، وفى عهده شهدت الفسطاط لأول مرة فى تاريخها ، ولأول

وآخر مرة أيضا ، حادثا عظيما هو جلد ابن الوالى بأمر من الخليفة لأنه جلد واحدا من أبناء الرعية ! وهو حادث لو وقع اليوم لعده الناس علامة من علامات الآخرة . ونذيرا بنهاية الحياة ! ولكن هذا العصر الذهبى للفسطاط لم يستمر طويلا ، فسرعان ما تبدلت الأحوال وقفز الى السلطة فى أمبراطورية الاسلام هؤلاء الذين حاربوا الاسلام بضراوة ، وقاتلوه الى أخر لحظة ولم « يؤمنوا الا عندما اصبحوا من الطلقاء ! هكذا تربع على السلطة معاوية ونقل مركز الخلافة من المدينة الى الشام . وعلى الفور شهدت الفسطاط مصرع واليها محمد بن أبى بكر . وقد وضعوه فى بطن حمار وأشعلوا النار فى الحمار وفى الوالى . ثم نثروا رماد الاثنين فى الهواء ، ولم يفهم أهل مصر سر التطورات الأخيرة ، خليفة ذهب وخليفة جاء . ولكن بين الذهاب والمجىء حدثت تطورات عميقة واحداث عنيفة . وتقلبات اجتماعية حادة . واعتبروا الأمر كله يخص هؤلاء العرب الوافدين من وراء الصحراء فقد كان أهل مصر حتى تلك اللحظة يدفعون الجزية ويعيشون فى سلام ! ولكن الغريب حقا ان العرب الذين يعيشون فى الفسطاط لم يهتموا كثيرا بالأمر . ولم يقاوموا العهد الجديد ! عاد عمرو بن العاص من جديد واليا من قبل معاوية ، وسارت الأمور سيرها المعتاد ، فلا ثورة ولا هبة ولا حتى مظاهرة تهتف بسقوط الخليفة !

وعادت المدينة تنمو وتتسع ، وتأكل من الصحراء وتهجم على شاطىء النيل . ولكنها افتقدت الشىء الذى كان موجودا من قبل . اختفى العدل وحل محله مزيج من القيصرية والكسروية والملك العضوض ! وهكذا انشئت المبانى وانحطم شىء ما فى داخل النفس ، واتسع العمران وانكمشت الحرية ، وانفتح باب التجارة ، واغلق باب الاجتهاد .

ثم جاء يوم كربلاء ، فى رقعة ضيقة من الأرض فى العراق ، وقفت الثورة والثورة المضادة وجها لوجه لأول مرة فى تاريخ الاسلام ، فى معركة الجمل ومعركة صفين كان الأمر يختلف . كان الاسلام فى السلطة ممثلا فى على ، وكانت الثورة المضادة تدعى حقوقا فى السلطة ، ولكن فى كربلاء كانت الثورة المضادة فى السلطة وكانت الثورة فى الشارع . ولم يكن لديها من أسباب القوة إلا النذر اليسير ، ومع ذلك قررت أن تخوض المعركة ، وهى على يقين من خسارتها ، على الأقل لتكون قدوة مادامت لم تستطع أن تكون سلطة وعندما سقط الحسين على الأرض راسما بدمائه ـ على التراب ـ نهرا رفيعا من الدم ، سرعان ما اتسع وامتد ليصبح طريقا طويلا ، هو الطريق الوحيد لكل من يرغب ـ فى المستقبل ـ فى اعتراض طريق الطاغية أو الوقوف فى وجه الباطل ! ومع ان

الفسطاط على بعد عدة آلاف من الكيلومترات من الموضع الذى سقط فيه الحسين . إلا انها اهتزت للأمر . لم ترفع السلاح فى وجه الخليفة القاتل استغفر الله ، ولم تشق عصا الطاغية على الحكم الباغى الذى يتحكم من دمشق ، بل اهتزت بطريقة أخرى مختلفة ، ستصير طابع العاصمة بعد ذلك حتى وان غيرت اسمها من الفسطاط الى القطائع الى العسكر الى القاهرة !

كان الخليفة يزيد الذى أدخل السرور الى قلبه ، العبث برأس الحسين بقضيب من حديد وهو جالس يتسلى على سرير الحكم . قد أمر عماله فى الأقاليم بأن يبعثوا اليه بنسل النبى ليتخلص منهم جميعا بضربة واحدة والى الأبد ! لأنه لن يهدأ لخليفة دمشق بال اذا بقى احد منهم حيا . ان الكفار الذين انهزموا فى بدر تمكنوا من الثأر فى كربلاء . ولكن شبح بدر لايفارق الكفار أبدا حتى وان قبضوا على زمام السلطة ، انهم يخشون من بدر أخرى . ولذلك وجبت ابادة كل أسرة النبى الذى هدم الأصنام فى الكعبة ، حتى لايكون هناك أمل فى بدر اخرى ، وبهذا فقط يصفو الجو ويروق البال ! وكان والى الفسطاط احد الذين تلقوا الأمر بالقبض على أهل النبى وكل من يمت الى الحسين بصلة ، وان يرسل الجميع بربطة المعلم الى دمشق لكى يتسلى الخليفة بقطع رقابهم ، ويعلقها على أشجار دمشق الفيحاء ! وكان على والى مصر ان ينفذ الأمر ، وإلا فإن رقبته هو شخصيا ستكون الثمن . ولما كان الوالى حريصا على رقبته ، وحريصا أيضا على انقاذ نفسه من غضب الآله ، فقد هداه تفكيره الى حل وسط يضمن به السلطة فى الحياة الدنيا ، والجنة فى الحياة الآخرة ! حل يضمن رضاء وقبول كل الجبهات والأطراف ! وحل أغلب الظن انه ليس نتاج تفكير عربى ، ولعله نصيحة أسداها لوالى الفسطاط كاهن مصرى يدفع الجزية ، وبالقطع كان أجداده يعملون كهانا فى معابد رع وست واتون والعجل أبيس . وسيكون هذا الحل هو طابع مستشارى الحكم فى عاصمة مصر الا فى فترات نادرة ، ومن النوع الذى لابد من وجوده لاثبات القاعدة التى ستصبح دستور هؤلاء المستشارين فى مصر والى اخر الزمان !

ولعل اعظم ميزة فى الزمن القديم هى تكافؤ الفرصة بين السلطة والثوار ! لم يكن لدى الخليفة الذى يحكم امبراطورية مباحث أمن دولة ولا مخابرات عامة ، ولاقناصل ولا مخبرون بالقطعة ولاشرطة نجده ، ولاشىء على الاطلاق الا ما يسمعه من رجال الحاشية والخصيان . وقد لايسمع الخليفة بثورة ضده الا اذا دقت الثورة باب الخليفة نفسه ! ولقد

استغل والى مصر هذا النقص الحكومي فعمد الى حيلة ذكية تخلص فيها من كل اعدائه . وضمن الجنة ومرتب الحكومة يقبضه من الخارج آخر العام لقد جمع الوالى كل اللصوص الخطرين والشطار الأذكياء والقتلة السفاحين وقطاع الطريق العتاة . وأرسلهم الى يزيد في قافلة مهيبة . ومع القافلة رقعة من الوالى : هؤلاء هم اقارب الحسين وخلصهم من حياتهم وخلصنا من شرورهم !

وكان ينبغي ان تمضى القصة الى نهايتها فيصل هؤلاء الى دمشق ويسالهم الخليفة يزيد عن سبب انحيازهم الى الحسين ضده فيقسم هؤلاء المجرمون انهم لا يعرفون الحسين ولم يره احد منهم قط ! وبالطبع . لايصدق الخليفة ما يدعيه هؤلاء « الكذابون » فيامر بقطع رقابهم جميعا ، ثم يدخل جناح الحريم ويستريح !

ولكن الذى حدث في دمشق كان أعجب . اذ انه كان من المستحيل - بعد وفاة النبى ببضعة أعوام - ان يقتل احد من الناس حفيده الحسين ويحتفظ بعقله . كان الاسلام لايزال في المهد . وكان ملايين المسلمين الذين على قيد الحياة قد شاهدوا النبي بأعينهم وصافحوه بأيديهم وآمنوا به وبرسالته . وكان عسيرا على هؤلاء جميعا أن يصدقوا دعوى يزيد ضد الحسين . فهو على كل حال ابن بنت النبى وابن ابن عمه . ولقد جن يزيد بالفعل ، ودخل حالة غيبوبة شديدة واختلط عقله فمزج بين الواقع والحلم . بين السلطة والايمان . بين العرش ونعيم الجنة . ويبدو انه استبشع منظر يديه المخضبتين بالدم . دم الحسين في رقبته . فمن ذا يكون شفيعه يوم الهول ! ولربما أراد يزيد ان يقدم شيئا بيديه ، ربما يغفر له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر . ربما يشفع له عندما ينفخ في الصور ، ويبعث الناس وفي يمين كل منهم كتابه ! ولذلك لحظة وقع بصره على القافلة المصرية الآتية بشحنتها من المجرمين العتاة . طلب اطلاق سراحهم وتكريمهم وان تجرى عليهم رواتب لاتنقطع من بيت المال . وعاد المجرمون الذين أراد الوالى ان يتخلص منهم الى مصر . عادوا اشرافا بشهادة من الدولة . وهل هناك اشرف من نسل الرسول ؟

رواية مصرية قد تكون هى الحقيقة . وقد تكون هى رأى المصريين في هؤلاء الذين يدعون الشرف ويمارسون سلوك السوقة . ولكن حكمتها البليغة تكمن في موقف الوالى من تنفيذ أمر الخليفة . ان ينفذ الأوامر كما هى بالحرف . وان يتجنب قدر الامكان المتاعب . وان يحقق - قدر الامكان - المكاسب . وان يحتفظ في كل الأحوال بالوظيفة والمرتب والبقاء الى جوار

السلطان ! صفة كل موظف مصرى منذ تلك اللحظة والى الأبد . وسنلحظها جيدا فى العصر الحديث . عندما نفذ الموظفون المصريون آمر عبدالناصر وطبقوا الاشتراكية . طبقوها بما يرضى عبدالناصر . وبما لا يحقق الاشتراكية ! وبما يضمن لهم فى الوقت نفسه حقوقهم فى المرتب والمعاش ! وعاشت الفسطاط بعد ذلك . تزدهر حينا وتتعثر حينا ، وامتدت حتى وصلت الى حلوان وكانت مشتى للولاة ورؤساء الجند وصاحب الخراج ووجوه القوم . وظلت الفسطاط هكذا حالها . هكذا حياتها ، حتى سقطت دولة بنى أمية فى معركة الزاب ، وشهدت عاصمة مصر عددا من جبابرة بنى أمية يتسللون اليها فى الظلام هربا من بطش الخليفة العباسى . وقد طالتهم يده بعد ذلك وقتلهم جميعا فى قرى الصعيد ! وكان من بين الذين دخلوها فتى أعور شديد العزم شديد البأس ، حديدى الارادة ، دخلها وخرج دون ان تمتد اليه يد ، وواصل رحلته الطويلة الى بلاد المغرب حيث موطن اخواله . ومن هناك رنا بعينه الوحيدة عبر البحر الى الاندلس ، كان يحلم واستطاع ان يحقق الحلم . وعبر بجيشه الصغير البحر الى شاطىء الأندلس ، ولم يلبث أن أقام فيها أعظم وأقوى دولة اسلامية شهدتها المغرب بعد فتح موسى بن نصير . هذا هو عبدالرحمن الأموى . أو عبدالرحمن الداخل . وصقر قريش ، كما كان يحلو لعصبته وانصاره أن يطلقوا عليه !

ولكن قبل ذلك بزمن قصير ، شهدت الفسطاط لمحة عابرة من العدل السابق ، وقد ومضت فى حياتها كالبرق ثم لم تلبث ان اختفت ليحل محلها الظلام . فقد ارتقى السلطة فى عاصمة الأمويين عمر بن الخطاب آخر ، كان يدعى عمر وكان ابوه يدعى عبدالعزيز ، وكان مجيئه فى دولة الظلم هو تأكيد لها ، لأنه الاستثناء الذى يثبت القاعدة ! ولو كان عمر بن عبدالعزيز هو القاعدة فى دولة بنى أمية فلربما عاشت دولة بنى أمية الى اليوم ، ولكنها تحولت الآن الى فندق فى دمشق والى مطعم فى بيروت . وقد احست الفسطاط بالفرق حين وصل الى الوالى كتاب أمير المؤمنين يحثه على مقابلة فرتوتة السوداء التى تسكن الجيزة ، ومعرفة شكواها وتحقيق مطلبها وتسليمها خطابا شخصيا من أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز . أمير المؤمنين . وفرتوتة السوداء ومن هى فرتوتة السوداء ؟ امرأة أغلب الظن حبشية وقبطية ولها مظلمة . لم يكن عند عمر بن عبدالعزيز ديوان للمظالم ، ولكنه كان ينظر فى المظالم بنفسه ولدى بعض الحكام اليوم دواوين للمظالم . ويبدو انها لتحصر المظالم ، أو لتسبب الظلم للناس

بعض عرب اليوم يقتبسون الاسماء من عرب الأمس ، مجرد الاسماء فقط . فهم عرب اسما وافرنجة فى الواقع ، ولديهم كاتب عدل ، وهو أظلم من الحجاج . وعندهم قاض وقضاه ، القضاء والقدر أرحم منهم !

ولقد ظلت الفسطاط على هامش الحياة العربية حتى وفد اليها ذات يوم ولد مستعرب أرسله سيده ليحكم ولاية مصر بدلا منه . كان الخليفة العباسى قد منح ولاية مصر لرجل من الاشراف ، ولكنه كان يشكو من الم فى الركبتين ، فأرسل الرجل المريض واحدا من حشمه ليحكم مصر ، ولكن حظ مصر كان عظيما لأن السيد كان مريضا ، فقد بدأت الفسطاط تدخل عصرا جديدا بقدوم الوالى الجديد احمد بن طولون .. فقد كان طموحا وفارسا وحاكما بالموهبة ومقاتلا بالغريزة ورأى ان الفسطاط لا تتسع لاصلاحه ، فهجرها وأقام عاصمة أخرى على مقربة منها هى القطائع . اقتطع أرضها لجنوده فعمروا فيها الدور ، واقام فيها مسجده الذى سيبقى الى الأبد واحدا من أعظم مساجد العالم الاسلامى . وسرعان ماهجر المصريون مدينة الفسطاط وازدحموا حول القطائع . وأغرب الظواهر انهم استخدموا حجارة الفسطاط فى تعمير القطائع ولم تمض سنون عدة حتى كانت الفسطاط قد اصبحت اثرا بعد عين حتى جامع عمرو بن العاص هجره المصلون فصار طللا ، واقفرت الشوارع حوله وانتشرت البرك والمستنقعات فى داخل الفسطاط . وبمرور الزمن تحولت الى مأوى للصوص وقطاع الطريق وعلى بعد ميلين منها كانت الأنوار تشع فى عاصمة العهد الجديد . ظاهرة جديرة بالدراسة . فالحياة للأقوى والولاء للحاكم الجالس على أريكة الملك هذه اللحظة . والخضوع للراكب الآن فى عربة السلطة . أما الذين مضوا وذهبوا فليرحمهم المولى ! وقد يكون هذا موقفا مشتركا بين شعوب كثيرة وأجناس شتى . ولكن الموقف من الفسطاط مختلف . لقد هجر الناس العاصمة عندما ابتعد عنها الحاكم . فالحاكم هو العاصمة لأن العاصمة ليست منازل ومدارس وفنادق وأسواقا . العاصمة نفوذ فإذا ابتعد عنها النفوذ ساروا وراءه !

□ □ □



الفصل الأول

مشيئة الأقدار

ولكن وبالرغم من كل شيء ، ظلت الفسطاط درة في تاج الخلافة أيام دمشق . وشهدت القاهرة ولاة في مرتبة عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي السرح ومحمد بن أبي بكر وعقبة بن أبي سفيان شقيق معاوية ، وعقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله ورديفه ، وعبدالعزيز بن مروان ، وعمر بن عبدالعزيز ، وقرة بن شريك العبسى ، وكان آخرهم عبيد الله بن مروان الحمار . وفي ولايته دالت دولة بنى أمية ، وانتصر العباسيون في معركة الزاب ، فلاذ آخر ولاة مصر الأمويين بالفرار ، وهرب نحو الصعيد ، فتعقبه عسكر بنى العباس والقوا القبض عليه في قرية ابوصير من أعمال الجيزة ، وقتلوه شر قتله ، وطرحوا جثته في العراء حتى اكلت منها الذئاب والكلاب . فلما علم ابنه ان أباه هرب ثم قتل ، قام الى خزائن المال فهبر منها عشرة آلاف دينار ذهبا ، واستولى على كميات كبيرة من التحف والقماش والفرش ، وحمل ذلك كله على اثنى عشر بغلا ، واصطحب معه جماعة من عبيده ، وشد على وسطه خريطة فيها جواهر نادرة ، وخرج من مصر هاربا متوجها الى بلاد النوبة ، فلما وصل الى هناك ، اقام في أحد القصور المهجورة ، ثم ارسل بعض عبيده الى ملك النوبة طالبا الأمان على نفسه من القتل . فلما أصبح العبد بين يدى ملك النوبة ، سأله الملك : هل جاء أميركم مقاتلا أم مستجيرا ؟ فأجابه العبد : بل جاء مستجيرا من عدو يريد قتله . فقال الملك : اذن سأذهب معك لمقابلته في هذه الساعة . فلما أقبل ملك النوبة على الأمير ، أصيب الأمير بالدهشة ، فقد كان ملك النوبة رجلا أسود اللون

طويل القامة نحيف الجسد يرتدى ملابس عادية فقيرة المنظر ويضع فى قدميه نعالا . وتقدم ملك النوبة فقبل يد الأمير . فاشار اليه الأمير بالجلوس على مرتبة عالية كان قد صنعها ليجلس عليها ملك النوبة . ولكنه رفض وجلس على الأرض . وصمت دهرا طويلا قبل ان يقول للأمير : كيف سلب منكم ملككم ؟ وأنتم أقرب الناس الى نبيكم . ثم سكت ملك النوبة ساعة قبل أن يقول : وكيف تنتمون الى نبيكم بقرابة وانتم تشربون ماحرم عليكم من الخمر وتلبسون ماحرم عليكم من الديباج والحرير . وتركبون ماحرم عليكم من سروج الذهب والفضة ؟ مع أن نبيكم لم يفعل شيئا من هذا على الاطلاق . وبينما أحنى الامير رأسه وراح ينظر فى الأرض . واصل ملك النوبة حديثه فقال له : لقد بلغنا عنك وعن ابيك وحاشيتكم انكم كنتم تخرجون الى الصيد . وتكلفون أهل القرى مالا يطيقون . وتفسدون الزرع على الناس . وكل هذا من أجل أرنب تصيدونه قيمته سبعة انصاف . وراح ملك النوبة يعدد مساوىء الأمير وأبيه . ثم قال وهو يختم حديثه : لقد سلب منكم ملككم عندما استحللتم ماحرم الله عليكم . وأنا أخاف على نفسى ان انزلتك عندى فتحل بى النقمة التى حلت بكم . وأمهلك ثلاثة ايام لكى ترحل عن أرضى . وأحذرك اذا اقمت بعدها أخذت ما معك من أموال وعبيد وقتلتك : فلما سمع كلامه . هرب من النوبة وعاد الى الفسطاط . فقبضوا عليه وأرسلوه الى السفاح فى بغداد حيث قتله هناك . ودخلت مصر من بعده عهدا جديدا . وشهدت أمراء من نوع أخر . لم يستفد أحد منهم من حكمة ملك النوبة . فكانوا أكثر فسقا وأشد جبروتا من ولاة بنى أمية . ويبدو أن الجماهير فى مصر سئمت اللعبة . وادركها اليأس من صلاح الحال . ولذلك ستشهد مصر أول ثورة شعبية فى تاريخها كله . ثورة لايشترك فيها مقاتلون محترفون ولافرسان أبطال . ولكنها ثورة شعبية سيقودها جماعة من الفلاحين والحرفيين . وستجتذب الى صفوفها كل من أذله الفقر أو طحنه الجوع أو عضه ظلم الولاة وفساد القضاة وجشع العسكر . وسيضطر الوالى العباسى الى الفرار من الفسطاط هربا من الثورة . وسيختبىء مع بعض خاصته فى مزارع حلوان . وبدا أن كل شىء فى طريقه الى الانهيار . ومصر توشك . على الافلات من قبضة الحكم العباسى . ولكن قدر لأول ثورة شعبية مصرية أن تنحسر موجتها وأن تنكسر شوكتها . والسبب أن الثورة رغم عنفها وقوتها كانت بلاقيادة . صحيح ان الغضب كان فى قمته . وسخط الناس كان بلا حدود . ولكن عدم وجود قيادة جعل الناس تفقد الرؤية الصحيحة وتخطىء الهدف . فقد

حدثت خلال الثورة أخطاء شديدة من جانب الثوار . فقد هاجمت الجماهير الغاضبة حواصل التجار داخل الفسطاط وخارجها ونهبوا مافيها وأشعلوا فيها النيران ، مع أن هؤلاء التجار كانوا رديفا للثورة ، وربما كانوا اكثر سخطا على السلطان . كما أعتدت بعض اجنحة الثورة على بعض الحارات داخل الفسطاط ، واعتدوا بالضرب على الآمنين من السكان . وفي النهاية تم قمع الثورة قمعا شديدا . واضطر الخليفة المأمون الى قيادة حملة والحضور الى مصر لقمع الثورة فيها . وقد دخلها في شهر محرم واستطاع ان يقضى على الثورة بعد أن أمعن في القتل ، وقيل أن الطيور الجارحة كانت تحلق في الفضاء ولاتنقض على الجثث المطروحة في الصحراء ، لأنها أكلت حتى شبعت . وعندما هدأت الأحوال في مصر ، عاد واليها المختفى في خرابات حلوان ، وكان يدعى عيسى بن منصور الرافقى ، وقيل ان المأمون وبخه بالكلام وقال له هذا كله لسوء تدبيرك وظلمك لأهل القرى ، لقد حملت الناس مالا يطيقون وكتمت الأمر عني حتى عظم . وعزل المأمون واليه عيسى بن منصور ووضعه في السجن وعين الانشين أميرا على حملة ، وعهد اليه بتعقب الفارين من الذين قادوا الفتنة في بر مصر ، فتوجه الى الصعيد ، ودخل في معارك رهيبة وأسر جماعات كثيرة وأحضرهم بين يدى المأمون ، فأمر المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والصبيان ، فلما خمدت الفتنة ، سرح المأمون في ضواحى مصر ، فكان يقيم في كل قرية يوما وليلة ثم يرحل عنها . وكانت القرى تتنافس فيما بينها لتقديم أشهى المأكولات والمشروبات للخليفة وجيشه ، ويقول عمنا بن اياس (وكانت موائده تضم كل الاصناف من غنم وبقر ودجاج وأفراخ سمك وأوز وسكر وعسل ولوز وفاكهة وحلوى ومسك وماء ورد وشمع وبقولات وغير ذلك) وقيل أيضا انه خرج من سرحته التى استمرت نحو أربعة أشهر وأياما منذ خروجه من بغداد وعودته اليه بأربعة مليارات من الدنانير الذهب غير الهدايا والتحف ، ففرق على عسكره لما رجع الى بغداد لكل واحد منهم ملء كفيه دنانير ذهبا . واذا كانت الثورة قد قمعت بلا هوادة ، فالحق أقول ان السبب في نشوبها ـ غير ظلم الولاة وفساد القضاة والعسكر ـ يرجع الى رجل من افاضل الناس والى سيدة عظيمة من بيت النبوة . أما الرجل فهو الامام الشافعى ، أما السيدة فهى السيدة نفيسة بنت حسين بن زيد بن على بن الحسين بن الامام على بن ابى طالب . أما الامام الشافعى فكان مولده بغزة ، وقيل بعسقلان ، وقيل ان فاطمة ام الامام الشافعى رأت في منامها وهى حامل به أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ،

ثم طارت منه شظايا فانتشرت فى سائر الافاق ، وكان مولده ١٥٠ هجرية ، وهى السنة نفسها التى توفى فيها الامام ابوحنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه . وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وقرأ الموطأ على الامام مالك بالمدينة ، وتفقه على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ، وأذن له فى الافتاء وهو ابن خمسة عشر عاما . وتوجه الى بغداد وهو فى طريقه الى مصر وزار قبر أبى حنيفه ، وكان يقول من اراد الفقه فعليه بأبى حنيفة ، ومن أراد الحديث فعليه بالامام مالك . وفى مصر تفرغ الامام الشافعى للعلم ، وصنف نحو مائتى جزء فى الفقه والاحاديث ، والتف حوله خلق كثيرون ، فلما اشتد بهم الكرب ، وثقل عليهم ظلم الولاة والقضاة ، كانوا يلجأون اليه يطلبون المشوره . فكان يردد دائما على مسامعهم « لايصلح أمور الناس الا عزائمهم ، ولا يقبل الظلم الا ميت ، أما الحى فهو اذا لم يقاتل ، فهو على الأقل قادر على أن يصرخ . وكانت هذه فتوى شرعية من امام الزمان والعصر لجموع المصريين أن ينتفضوا ضد ظالمهم وأن يهبوا ضد جلاديهم . وذات مساء ، وكان لديه خلق كثيرون ، سأله أحدهم عن الطريق لاصلاح ما أفسده الدهر . فأجاب الامام الشافعى : اذا لم تكن الكلمة سدادة فليكن السيف . وكانت هذه اشارة واضحة صريحة لبدء الثورة ضد الطغاة والظالمين . وما أكثرهم فى دولة بنى العباس . فى نفس الوقت كانت السيدة نفيسة تفتح أبواب بيتها أمام جموع المصريين ، وكانت قد لقيت هى وأهلها ظلما كثيرا على يد دولة بنى أمية ثم على يد دولة بنى العباس . وكان زوجها أميرا على المدينة المنورة ولكن العباسيين خلعوه من ولايتها ، فهاجر من الجزيرة العربية واختار مصر منفى له . ومنذ ان حطت السيدة نفيسة رحالها فى مصر المحروسة ، التف حولها المصريون ، وقصدها أصحاب الحاجات ورجال العلم والدين . وكانت نموذجية فى سلوكها كريمة فى عطائها فريدة فى حلمها ، فأحبها المصريون وآمنوا بها لدرجة انه عندما فكر زوجها فى الرحيل والعودة الى المدينة ، توسل اليه المصريون ان يترك السيدة نفيسة فى مصر اذا بقى مصرا على العودة الى مسقط الرأس . واضطر الزوج الكريم الى النزول عند رغبة الجماهير والاقامة فى مصر الى الابد . وقبل اندلاع الثورة بقليل كانت السيدة نفيسة تحرض المصريين على المقاومة ضد الظالمين والوقوف فى وجه الحمقى من الولاة وحكام الأقاليم . وعندما ابدى لها البعض عجزهم وضعفهم ، قالت لهم : لم يكن الحسين الا فردا واحدا أمام دولة غاشمة وملك عضوض ، ولكنه لم يهرب ولم يستسلم ، وقاتل ضد الظلم حتى

قتل ، وفهم المصريون ان مقاومة الظالم لاتحتاج الى جيوش ، والوقوف ضد الطغيان لا ينتظر كشف حساب لموازين القوى . ولكن مثل هذه الأمور تحتاج الى وقفة رجال ، والى استعداد للتضحية بالحياة ، باعتبار انه من الخير للانسان اذا ساءت الحياة ووصلت الى حد الذل أن يموت ، ويصبح بطن الأرض خيرا له من ظهرها . وكان الرجل المصرى الذى حرك الثورة ونفخ فيها النار هو أحمد البنهاوى ، وأصله من بنها العسل . وسميت كذلك لأن مقوقس أرسل ضمن هداياه الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم زلعة عسل نحل ، فلما تذوقها الرسول الكريم ، أبدى استحسانه الشديد وقال من أين هذا العسل ؟ فقيل له من قرية فى مصر يقال لها بنها ، فقال صلى الله عليه وسلم : بارك الله فى بنها وفى عسلها . وكان أحمد البنهاوى رجلا عالما باللغة والحديث والتفسير ، فصيح اللسان ، شجاع القلب . وقد اخذ على عاتقه تعبئة الجماهير فى القاهرة ضد الحكم العباسى . ثم سافر الى بنها . ثم عاد الى القاهرة مارا بعرب برشوم والعمار وقليوب . واستطاع ان يبذر هناك خلايا الثورة وأن يمدها ببعض المال الذى استطاع أن يجمعه لشراء السيوف والخناجر والحراب . وقيل أن أغلب الأموال التى جمعها كانت من السيدة نفيسة ومن الامام الشافعى . ولو كانت خطة أحمد البنهاوى قد سارت فى طريقها المرسوم ، لنجحت الثورة فى تحقيق أهدافها . ولكن لأن التاريخ ليس على هوى المخططين ، ولكنه يسير على هوى التاريخ . فقد وقعت حادثة غريبة أودت بحياة أحمد البنهاوى قبل قيام الثورة بأيام . وأصل الحكاية أن بعض قطاع الطرق نهبوا قافلة تجار بالقرب من قليوب . وهرعت الى هناك بعض الفرسان من حرس الوالى لتعقب اللصوص . وحدث انهم كبسوا على قليوب وكان بها أحمد البنهاوى فى بيت منعزل مع فريق من أصحابه ومعهم سيوف وخناجر وحراب من التى أعدوها للثورة ، فظنهم الجنود قطاع الطرق . ونشبت بين الفريقين معركة ، انتهت بمقتل أحمد البنهاوى ورفاقه بعد معركة شرسة مات وجرح فيها عدد لابأس به من الجنود . وربما كانت هذه المعركة غير المقصودة ، هى أول معركة من معارك الثورة ، فقدت نشبت المعارك بعدها بقليل . لأن الثوار علموا مصير أحمد البنهاوى ، ولديهم سلاح وآلات وعدد ، وهكذا نشبت الثورة بعد أن فقدت القيادة المخططة ، ولكنها نشبت وانتشرت وانتصرت فى عدة معارك دفعت الوالى الى الهرب من القاهرة واللجوء الى حلوان . وكما نشبت فى القاهرة ، نشبت أيضا فى بنها ثم انتقلت الى (طندتا) فتطايرت ووصلت الى الصعيد . ولم تكن فى الصعيد

بعض فاعل . ولكن الناس كانوا فى انتظار أى مناسبة وأى اشارة لكى تقوم الثورة وتشتعل النيران .

واذا كان مصير الثورة قد انتهى الى الفشل . فقد عبر المصريون عن رأيهم فى نظام الحكم العباسى . واستطاعوا دفع بعض المظالم ، ومنع بعض الاعتداءات . وارساء بعض القواعد . وكان أهم هذه القواعد هو ارتباط رجل الدين بالزعامة وسيصبح كل زعماء مصر بعد ذلك من رجال الدين . وسنكتشف من خلال قراءة التاريخ أن كل مشايخ مصر الكبار وأصحاب الاضرحة الكبيرة والموالد المزدحمة ، هم فى الحقيقة زعماء سياسيون قبل ان يكونوا رجال دين . وانهم كانوا فى صف الجماهير ضد الحاكم والوالى وعساكر السلطان . وكلهم وبلا استثناء ومن أول السيدة نفيسة والامام الشافعى والى الحسن الشاذلى والمرسى ابوالعباس وسيدى احمد البدوى والشاطبى والقبارى وابراهيم الدسوقى . كلهم قاوموا السلطة الغاشمة والملك العضوض . وبعضهم اشترك فى محاربة الغزاة وقيادة المقاومة ضد الغازى الاجنبى . أما المشايخ الذين اكتفوا بالتسبيح والتفسير والتسول من الاثرياء والولاة ، فهؤلاء كنسهم التاريخ من ذاكرة المصريين والقى بهم فى غياهب النسيان .

المهم هناك واقعة طريفة لابد من سردها فى هذا المقام . وهى أنه عندما حضرت الوفاة شيخ مصر الكبير الامام الشافعى ، أوصى أهله ومريديه بأن يتولى غسله والى مصر ولا أحد سواه . فلما مات أبلغوا الوالى وصية الشيخ . فسأل الوالى أهل بيت الامام الشافعى هل عليه دين ؟ فقالوا نعم ، أربعون الف دينار . فقال هذا هو غسله . وقام بتسديد كافة ديون الشيخ . وقيل ان هذه الديون هى نفسها الأموال التى أمد بها الامام الشافعى احمد البنهاوى للاعداد للثورة ضد الحكم العباسى .

ما أبعد الفرق بين اليوم والامس . وما أبعد المسافة بين الامام الشافعى وبعض أئمة هذا الزمان . هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة شركات توظيف الأموال ، وساعدوها باسم الاسلام ، وعاونوها على النصب والاحتيال باسم الدين واخترعوا أكاذيب وأقوال ما انزل الله بها من سلطان .

رحم الله الامام الشافعى ، وغفرالله لحضرات السادة ائمة آخر الزمان !

□ □ □



الفصل الثانى

زهر الجنة

كان عهد ابن طولون هو بمثابة عودة الروح الى مصر من تانى . وكان المملوك التركمانى ابن طولون على موعد مع مصر وكان الاثنان على موعد مع القدر . لقد هبت مصر واقفة مرة اخرى على قدميها لحظة دخول ابن طولون مصر . وكان الولد عظيم الشأن والشنشان ، وكان مملوكا لرجل من سادة بغداد ، وكان السيد مريضا لا يقوى على المشى ...

وعندما صدر أمر الخليفة للرجل المريض بالسفر الى القاهرة واليا على مصر استأذن الرجل فى أن يرسل مملوكه أحمد بن طولون . ويبدو الأمر كله الآن وكأنه من تدبير السماء ! فلم تكد تمر سنوات قليلة على دخول ابن طولون مصر حتى كانت جيوشه تزحف نحو الغرب لتضم ليبيا وأجزاء من تونس الى مملكته الجديدة ولعلها أول مرة وآخر مرة ايضا يتجه فيها جيش مصر نحو الغرب . فقد جرت العادة قبل ذلك على أن تتحرك الجيوش المصرية نحو الشرق ، وكانت الشام والجزيرة العربية هما مطمع كل نظام قوى فى مصر ولكن ابن طولون لسبب لا يعلمه احد خرق القاعدة واتجه نحو الغرب وعندما حقق ما كان يصبو اليه عاد مرة اخرى فسار على درب أسلافه وخلفائه ايضا فزحف نحو دمشق والشام ، وأسس أول امبراطورية مصرية بعد الفتح .

ولقد كانت عاصمته الجديدة ـ القطائع ـ غاية فى الفن الهندسى انفق على إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة فى الشرق والغرب ؛ وكانت دورهاواسعة وحدائقها أوسع . واستخدموا فى بناء دورها وقصورها حجارة الهرم الاكبر ظنا منهم أن القدماء قد قاموا « بتشوين » هذه الحجارة على شكل اهرامات تمهيدا لبناء مدينة .

ولما كانت القطائع تقع على قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد اقام لها قناطرشديدة الارتفاع ورفع الماء اليها عن طريق سواق فى المكان المعروف الآن بفم الخليج ولقد عاف الناس شرب الماء أول الأمر . وكانوا يعانون كثيرا فى الذهاب الى النهر لأخذ حاجتهم من المياه . وأفتى شيخ مشايخ مصر بأن ماء القناطر أسن وشربه حرام واستعماله فى الوضوء باطل . وعندما علم أحمد بن طولون بالأمر أرسل عددا من رجاله بعد منتصف الليل الى منزل شيخ المشايخ وصحبوه معهم ، وأدرك الرجل أن فى الأمر سرا ، وانه هالك لا محالة ، واصطحبوه الى ساحة واسعة تتفرع فيها القناطر الى اتجاهات عدة وفوجىء الشيخ الذى كان يزحف نحو السبعين باحمد ابن طولون يقف عند حافة القنطرة . ووقف الشيخ العجوز يرتعد من شدة الخوف والبرد . ووقف أحمد ابن طولون صامتا يرنو الى المياه الباردة المتدفقة من أعلى الى أسفل منحدرة بشدة نحو بيوت المدينة ثم انحنى الحاكم وعب من المياه عب ظمآن طال به العطش والشوق . ثم دعا شيخ المشايخ الى الشرب فانحنى الرجل وشرب حتى امتلأت بطنه . ثم تجشأ فى سرور وهتف فى فرح بالغ : ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة ! شيخ المشايخ الذى أفتى بأن ماء القنطرة حرام . هتف أمام الحاكم : ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة ! وستكون هذه ايضا هى سمة كل مشايخ مصر الكبار إلا فى لحظات نادرة وسيكون هدف المشايخ بعد ذلك إرضاء الحاكم ثم إرضاء الله ! وستشهد عاصمة مصر بعد ذلك عددا من المشايخ على شاكلة شيخ عصر ابن طولون ، بعضهم يفتى بأن البيبسى كولا حلال وبعضهم يحكم بأن فاروق الأول من نسل محمد عليه الصلاة والسلام وسيصبح المشايخ بعد حادث ابن طولون جزءا من السلطة ، لهم الرواتب والمناصب والهبر الشديد !

وعاش ابن طولون يقاتل كل يوم من اجل الحفاظ على مملكته قاتل الروم والعرب وابنه ايضا الذى انتهز فرصة غياب ابيه فى بعض الفتوحات واستولى على السلطة ولكن الرجل الهمام ابن طولون عاد فأستولى على مصر مرة اخرى وقتل الولد الذى سدد اليه طعنة فى الظهر . وتخلص ابن طولون من جميع الأعداء بضربة واحدة !

ولكن العمر لم يمهل ابن طولون ، فسرعان ما غادر الحياة . وجاء الى العرش خليفة هزيل شغوف بالنساء والعطور . محب للحياة . وكأنها ستصير عادة الحكم فى مصر بعد ذلك . كلما تولى الامر فيها رجل قوى خلفه على العرش رجل هزيل فمن ابن طولون الى خماوريه ، ومن صلاح الدين الى الملك الصالح ، ومن على بك الكبير الى البرديسى . ومن محمد على الى سعيد ومن جمال عبد الناصر الى .. عصر الانفتاح والانبطاح والغم الشديد !
واذا كان ابن طولون قد اختار الدخول فى معركة مع خليفة بغداد الضعيف . فقد اختار خمارويه الدخول معه فى مصاهرة وشهدت القاهرة ليالى ملاحا أشبه ما تكون بالليالى الملاح التى تشهدها الآن عند زواج بنات السلطة بأبناء الأثرياء والأغنياء والذين فى جيوبهم مرض ! ولما مرض بالأرق أقام بركة وأجرى فيها الزئبق بدلا من الماء ، ونام على بحيرة الزئبق يتأرجح سريره كطفل تهدهده الاماء . ولكن مصر كلها كانت تهدهدها أيدى الثورة . وكان عهد ابن طولون قد استنفد أغراضه . لقد أقامه رجل واحد قوى الشكيمة شديد البأس عظيم الطموح . فلما مات ماتت دولته كذلك ، وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذى قام لم يكن دولة ابن طولون ، ولكن شبح الدولة وصدى الصوت القوى الذى كان يتردد فى جنباتها يوما ما غير بعيد .
وهكذا حلت دولة الأخشيد مكان دولة ابن طولون ودخلها عن طريق البحر ، ورست قطع اسطوله المتواضع فى النيل امام الفسطاط القديمةوالقطائع الجديدة . وعاد وعاظ المساجد يخطبون باسم الأخشيد ويلعنون سنسفيل جدود عهد ابن طولون ، ولا أحد يدرى بالضبط ماذا أطلق عليه وعاظ المساجد . ولكن الأكيد أنهم وصفوه بالعهد البائد ونسبوا اليه كل نقيصة ، ورموه بكل مصيبة ونبشوا قبر ابن طولون ونعتوه بالديكتاتورية والشيوعية ، وألصقوا به النكسة التى حلت بمصر ، أى نكسة وأى وكسة ، لابد أنها من صنع يدى الحاكم الذى مات ، اما الذى يتربع على عرش مصر فهوالفريد وهو الوحيد وكلهم ركش !
طابع ، ربما لا تنفرد به مصر بين الدول ، ولكنها تتفنن فيه وتضعه فى إطار ، وتضيف اليه أشياء وأشياء فى كل حين !
وهو مرض استوطن فى مصر منذ عهد عمنا رمسيس ورعمسيس واحمسيس لدرجة ان كل حاكم جديد كان يتولى الحكم كان يمحو أسماء من سبقوه من فوق الأهرامات والمعابد ويضع اسمه الكريم محل الاسم المطموس .

أحوال وأهوال ولله فى خلقه شئون !

ولقد جاء عصر الأخشيد ومضى دون أن يترك خلفه أثرا لامعا فى التاريخ ، اللهم الا بناء عاصمة جديدة لمصر هى العسكر . وبناها الناس من حجارة بيوت عاصمة ابن طولون (القطائع) ومما اقتطعوه من حجارة الأهرام وآثار الفراعنة فى أبى صير وسقارة ويقال إنه كان فى أبى صير أربعة عشر هرما صغيرا هدمت كلها واستخدمت حجارة فى بناء عواصم مصر الأربع ، الفسطاط والقطائع والعسكر ، ثم القاهرة بعد ذلك ، وعانت مصر من المجاعة فى الدولة الأخشيدية بسبب نقص جريان النيل ، واستمر القحط تسع سنوات ، وبيع أردب القمح بثلاثين دينارا ، وكان ثمنه فى عهد ابن طولون دينارا واحدا لكل عشرة أرادب ! ولكن الأحوال عادت فانصلحت والأمور استقامت بعد ذلك فى عهد الأمير أبو بكر الأخشيدى وبلغ من رخاء الحال وازدهار الأحوال أن الخراج بلغ فى أيامه مليون دينار ، وأن الأمير صنع لأولاده فوانيس شمع فى ليلة شم النسيم فكان مصروف ذلك مائة وعشرين ألف دينار . وعندما مات الأمير أبو بكر كان الأمير سيف الدولة يواجه الروم وحده فى حلب ، والخليفة العباسى يعانى الوحدة والعزلة فى بغداد ، وكان الفرنجة يجوسون خلال ديار المسلمين على مزاجهم ، ويدوسون على مقدسات العرب على كيفهم ، وكل شىء فى ترد وكل شىء فى انحطاط . ولكن ذلك لم يمنع شاعرا أرزقيا عظيما هو المتنبى من رثاء الأمير ابو بكر بهذه الأبيات :

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخار ومن نعماء لا تسعا
يا لحد طل إن فيك البحر محتبسا
والليث مهتصرا والجود مجتمعا

ولعل تلك كانت هى بداية العلاقة بين المتنبى ودولة الأخشيد . وعندما تولى الأمر كافور الأخشيدى وكان خادما لدى الأسرة وايضا كان أستاذا لأولادها حتى وقعت فى مصر هزة أرضية عظيمة « خافوا الناس من ذلك وهربوا الى الجبال » وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتى أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمى محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه والقى قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها
لكنها رقصت من عدله طربا

قصيدة نفاق من شاعر كذاب دفع فيها كافور ألف دينار ذهبا ، وهذه

الجائزة هى السبب الحقيقى الذى جعل المتنبى يشد رحاله الى كافور ، فاذا كان يدفع ألف دينار ذهبا لشاعر خفيف الوزن مثل ابن عاصم فكم يدفع لشاعر فى وزن المتنبى ؟ واذا كان المتنبى هو شاعر أرزقى على المستوى القومى ، فالشاعر محمد بن عاصم هو شاعر أرزقى على مستوى إقليمى ، وهو نموذج من الكتاب والأدباء والشعراء المصريين ستصادفهم كثيرا فى تاريخ مصر ، وحتى يومنا هذا .

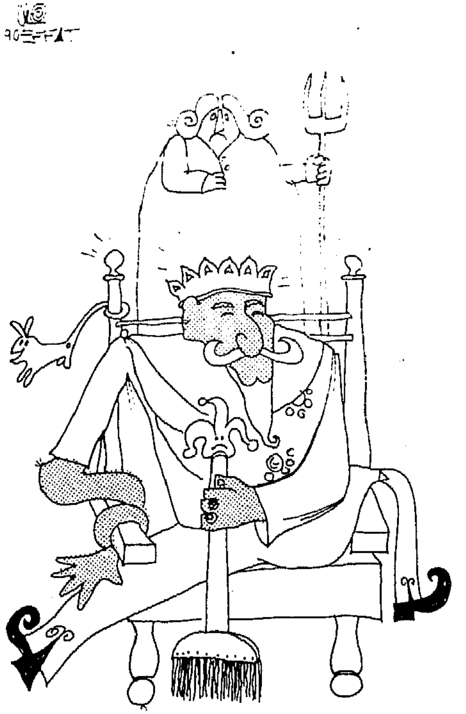
ويخطىء من يعقد المقارنة بين كافور الأخشيدى وبين بعض من حكموا مصر ، ولقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لايصاحب الا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة . وكانت موائده العامرة مبذولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، « وكان لمطبخه فى كل يوم ألفا رطل من اللحم البقرى وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملا رضع ، وثلاثمائة صحن حلوى ، وألف قفص تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وكان يحضر على سماطه الخاص والعام » !

ولكن حظ عمنا كافور السيىء انه اصطدم بأعظم موهبة انجبتها أمة محمد على طول الزمان ، هذا الفتى الموهوب الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، كان بالرغم من موهبته الفذة أرزقيا من أعظم طراز ، مدح كافور فى البداية ثم لعن أباه بعد ذلك . وقال فى تبرير مدحه لكافور إنه كان فاقد الوعى ، العبارة نفسها التى نطق بها متنبى آخر فى هذا الزمان ، مع الفارق الشاسع فى حجم الموهبتين ! فبالرغم من مدائح المتنبى لكافور ، فان الأجيال لم تحفظ إلا تحقيره له وهجومه عليه بعكس متنبى هذا الزمان - توفيق الحكيم - الذى ذهب كتابه« - عودة الوعى - فى زبالة التاريخ وأصبح بمثابة النكتة فى مجالس أهل مصر !

وليس أدل على عظمة كافور من أنه عندما مات ماتت معه مصر ودخلت فى عصر آخر جديد ، ولم ينتشلها من رقدتها إلا بطل تاريخى . ولم ينتشل مصر وحدها ولكنه انتشل معها أمة العرب وكرامة العرب ، ورفع رايتهم خفاقة على بيت المقدس .

رجل واحد . ولكنه ولا كل الرجال . اسمه صلاح الدين بن يوسف بن أيوب . ما أشد حاجتنا اليوم الى رجل آخر كصلاح الدين .

□ □ □



الفصل الثالث

سيف المعز وذهبه

اضطربت مصر بعد موت كافور ، واختل الأمن ، وازداد الغلاء ، واصبح المرء لا يأمن على نفسه اذا سار فى الطريق بعد العصر ! وقال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : « وطمع الفلاحون فى الجند » وامتنعوا عن وزن الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر إلى المعز الفاطمى - وكان فى بلاد الغرب - بأن يحضر الى الديار المصرية ، ويتسلم المدينة ويتولى عليها ، فلما وقف المعز على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلى ومعه مائة ألف من عساكر الغرب !

وهذا الذى ذكره الشيخ شمس الدين الذهبى « فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى » ! أعيان مصر هم الذين استدعوه ليحكم مصر ، ليجبر الفلاحين على دفع الخراج ، ليحمى الاعيان من قطاع الطرق والصياع الذين بلا عمل ، والفقراء الذين بلا مال ! وسنرى هذا السلوك يتكرر فى تاريخ مصر الحديث ، أعيان مصر هم الذى ذهبوا الى محمد على يركعون عند قدميه طالبين منه أن يتفضل ويحكم مصر ! وأعيان مصر هم الذين استنجدوا بالجيش الانجليزى ليضرب ثورة عرابى وليعيد الأمن الى ربوع مصر ! وأعيان مصر هم الذين طالبوا من أنور السادات ان يرفع شعار سيادة القانون ، لكى يستردوا أراضيهم المصادرة ، وقصورهم التى انتزعتها منهم الثورة ! وكانت صرخة حمدى عاشور وزير الحكم المحلى وأحد « الضباط الأحرار » فى وجه أنور السادات فى أول يوم تولى فيه السلطة ، هى أول استغاثة من جانب الأعيان للسلطة الجديدة : « ياسيادة الرئيس احم العمل التنفيذى من العمل السياسى ! وبعدها قال أنور

السادات قولته الشهيرة : « الاتحاد الاشتراكي يخدم ولايحكم » ! وسار هذا دستور السلطة وقتئذ ، الخدمة للاتحاد الاشتراكي والحكم للاعيان .

المهم ، أن المعز لدين الله جاء بناء على طلب من أعيان مصر ، وجاء لمهمة محددة هي حماية الأمن وحكم البلاد ، وعندما دخل جوهر الصقلي لم تعجبه عواصم مصر الثلاث التي اندمجت فصارت مدينة واحدة ، فقرر بناء عاصمة جديدة واختار لها مكانا مناسبا عند سفح جبل المقطم في اقصى الشمال من الفسطاط عاصمة العرب الأولى . وقد اطلقوا على العاصمة الجديدة في البداية اسم المنصورية ، ثم غيروا اسمها الى القاهرة . واقاموا حولها سورا من الطوب اللبن ، وجعلوا لها ستة أبواب ، أربعة منها في الجهات الأصلية ، وبابان . سريان كان يعرف أمرهما قائد الجيش والخليفة شخصيا . وعندما انتهى بناء السور جاء المعز لدين الله ، ودخل المدينة ذات يوم من أيام شهر رمضان .. ولغط الناس بأصله وفصله عند دخوله ، فمنهم من نسبه الى النبي ومنهم من نسبه الى أصل مجوسي .. وكانت الأغلبية من انصار هذا الرأي ! وجاء المعز ومعه الفان وخمسمائة جمل موسوقة ذهبا خالصا » وكان معه من القماش والتحف مالم يسمع بمثله » ! !

ولكن . وأيا كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه . فالذي لاشك فيه ان كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئا والعصر الفاطمي شيئا أخر . فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة . وهذا هو عصر الاقارب والمحاسيب والانصار . وستعود الدولة المصرية الاسلامية الى عصر فرعون الذي ولى . دولة غنية وشعب من الفقراء . وأسرة حاكمة تملك كل شيء . وشعب لايملك الا صلاة النبي ! وسيصبح لمصر من الآن ولمدة اقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان . دولة بكل ما في كلمة دولة من معنى . جيش مقاتل كل أفراده اجانب ومرتزقة . وزارة يتولى أمرها القائد جوهر الصقلي ، وجهاز اعلام هو اخطر جهاز اعلامي انشأه العرب في العصر الوسيط . وهو بلاشك كان اكثر تنظيما واكثر تأثيرا من جهاز الدكتور حاتم ، رغم أن حاتم كان يعيش في عصر الراديو والتليفزيون والسينما والقمر الصناعي واجهزة التسجيل ! وكان داعي الدعاة هو وزير الاعلام بلغة العصر الحديث .

وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار . ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ على أمن الدولة والعمل على استمرارها وجمع المعلومات ايضا وشراء ذمم الناس ! ولم يجد المعز

لدين الله أية معارضة حين أبطل العمل بالمذهب السنى فى مصر . وتحول الناس جميعا فى هدوء الى المذهب الفاطمى . وتم هدم مسجد عمروبن العاص . أول مسجد أقيم فى الاسلام على أرض مصر ، وحل محله المسجد الأزهر ، وهو أقيم فى الأصل كجامعة لتدريس علوم المذهب الفاطمى على وجه الخصوص . وعندما أحرقت السلطة كل كتب السنة لم يرتفع صوت واحد بالاحتجاج . انصرف الناس الى أعمالهم كالعادة واهتموا بشئونهم كما كانت الحال من قبل . شاعر واحد رفع صوته بالاحتجاج . لم يهتم التاريخ بذكر اسمه . وأسرعت السلطة فضربت عنقه أمام باب الجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة . ثم هدا الجو تماما ، وصفت الأحوال ، وانتهى كل شىء . فلم تعد هناك معارضة ، ونزع مشايخ الاسلام زيهم القديم الاسود شعار العباسيين وارتدوا الزى الأخضر شعار دولة الانفتاح ! وقد يسأل : لماذا هذا السلوك من جانب المصريين فى مواقف تاريخية خطيرة ؟

والجواب أن هذا ليس سلوك المصريين ، ولكنه سلوك مصر الرسمية قشرة رقيقة من شعب مصر هى طبقة الأرزقية والاذناب ، وستجدهم بكثرة فى العصر الوسيط وفى العصر الحديث أيضا .

ولكن هؤلاء يذهبون دائما فى مجارى التاريخ ، وتبقى روائحهم تزكم الأنوف الى ما لا نهاية !

وهكذا ، أصبح لمصر أيضا ولأول مرة فى العصر الاسلامى ، سيدة أولى ، وهى السيدة ست الملك . وكانت امراة ذات شخصية طموح ، وكان المعز لدين الله يهابها ، وبلغ من سطوتها أنها كانت تتصل مباشرة برئيس الوزراء والوزراء قواد الجند وتأمرهم فيطيعون . ولم تكن ست الملك زوجة للمعز لدين الله . ولكنها كانت أخته . وقد حازت من أراضى مصر مايفوق الحصر . واشتغلت بالتجارة ، وكانت تقبل الهدايا من حكام الأقاليم والولاة . وعندما ماتت حصروا تركتها فوجدوا عندها من الذهب العينى ثلاثمائة صندوق . ومن الفصوص الياقوت الملونة خمسة صناديق ، اللؤلؤ خمسة صناديق ، ووجد لهل مدهن من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحص له ثمن . ووجد لها من الأثواب الحرير ثلاثون الف ثوب ! !

وإذا كانت مصر من أوائل دول الأرض التى حكمتها النساء ، أحيانا مباشرة وأحيانا عن طريق غير مباشر ، فان التاريخ سيذكر لست الملك انها كانت المرأة الأولى التى حكمت مصر فى ظل الاسلام ، وان الأمر الأن قد أصبح عاديا فى دولة الانفتاح الجديدة ، كانت هناك أم الأبطال التى تحكم

بصراحة ، وستجد الى جانبها أم البطل صاحبة كازينو الليل فى شارع الهرم ، أم بادرة الشهيرة بالمبادرة التاريخية التى فاقت أول رحلة للانسان على سطح القمر !

ولقد مات المعز بعد سنوات أربع من ولايته ، وخلفه ابنه العزيز بالله ، وكان عادلا ورحيما ومحبا لخلق الله ، وهو الذى استوزر يعقوب بن كلس من أقباط مصر ، وجعل قبطيا اخر اسمه فسطورس عاملا على سائر جهات مصر ، واستخدم يهوديا عاملا على دمشق . وتزوج من قبطية ، وعاشت مصر فى عهده فى بحبوحة ورغد ، وذاقت طعم الأمن بعد سنوات طويلة من الرعب والضياع . وامتدت ولايته واحدا وعشرين عاما ، وعندما مات خلفه ابنه الحاكم بامر الله ، وهو واحد من أغرب شخصيات مصر على الاطلاق . فهذا الصبى الذى تولى السلطة وهو فى الحادية عشرة ، والذى كان والده شيخ المذهب الفاطمى وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر ، جن جنونه فجأة وهو يقبع وحيدا فى مغارة على قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتا يناديه ويدعوه الى التوفيق بين دين النصارى ودين المسلمين . واستخراج دين جديد . ولقد بدأ الصبى الصغير فى البحث عن هذا الدين الجديد على الفور . وهداه تفكيره الى انه مادام الله واحدا أحدا ، فلماذا لايتوحد جميع الأنبياء فى واحد فقط ؟ ولماذا لايكون الحاكم بأمر الله هو هذا النبى الواحد ؟ ولكن عين الدولة كانت تراقب كل شىء عن كثب وكان القلق ينهش قلوب كل افراد الأسرة الحاكمة خوفا من هذا الانقلاب الذى يوشك الحاكم بأمر الله ان يقوده ! وكان أكثر افراد الأسرة قلقا ست الملك عمته . وقال بعض المؤرخين : انها ليست ست الملك ، ولكنها بست النصر اخته ، وان ست الملك ماتت فى عهد ولاية المعز ، وأياً كانت السيدة التى تآمرت ضد الحاكم بأمر الله ، وهل هى ست الملك أو ست النصر ، فهى على كل حال ست والسلام ! وقد انضم الى المؤامرة فوق افراد الاسرة الحاكمة قائد الجيش سيف الدين ابن رواش .

وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الاشهب ، ويضع بردته على كتفيه ، وبينما كان صاعدا الى جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الاشداء فقتلوه . ولم يعرف أحد بقتله حتى عاد حماره الأشهب ذات صباح الى القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم . عندئذ تأكد الناس فى القاهرة من قتله . ولكن البحث الطويل لم يسفر عن العثور على الجثة . وقد انتصرت السلطة على أعوان الحاكم وأفراد التنظيم الذى كان يعمل لنشر الدين الجديد فى الخفاء . وكان

اعضاؤه جميعا من الشباب صغيرى السن . وقد تم القضاء عليهم بضربة واحدة والى الأبد ، كما اعلن داعى الدعاة بعد ذلك ! ولكن ولدا واحدا استطاع الافلات من قبضة المباحث الفاطمية ، وتسلل من مصر هربا تحت جنح الظلام واجتاز صحراء سيناء الى بر الشام . وراح يبشر فى بداية الشام وفى وادى اليتم بالدين الجديد ، وأعلن ان الحاكم بأمر الله قد رفع الى السماء ، وأنه المهدى المنتظر الذى سيعود أخر الزمان ليصلح الأرض من الشرور ويقيم العدل قبل يوم الموقف العظيم ، ولد واحد اسمه عبد الرحمن الدرزى ، والى اسمه انتسب معتنقو الدين الجديد : الدروز !

ولكن الدولة الفاطمية التى نجت من السقوط بموته راحت تكيل التهم له ، ورمته بالجنون ، وبأنه حرم أكل الملوخية ومنع النساء من ارتداء الكعب العالى .. الى أخر هذه التهم الساذجة التى صدقها العامة واصبحت بعد ذلك جزءا من التاريخ ! وتولى ابنه على وجلس على سرير الملك باسم الظاهر لدين الله . وماتت اخته ست النصر ، وكان بين تركتها اربعة الاف جارية وثلاثون زيرا صينيا مملوءا من المسك السحيق ! وذهب الحاكم بأمر الله بسره الى قبره ، ولم يعرف أحد هل كان إلها أم رسولا أم مظلوما ؟ ظلمته الأسرة الحاكمة فقتلته ، وظلمه عبدالرحمن الدرزى فنسب اليه مالم يكن فيه !

ولكنه على أية حال ذهب . أعجوبة مصرية أخرى . وما أكثر ما انجبت مصر من اعاجيب !

□ □ □



الفصل الرابع

الشعر الحلمنتيشي

ومضت الدولة الفاطمية تمهد الأرض لنفسها ، تقمع المعارضين أحيانا ، وتشترى ضمائرهم أحيانا . ودخل الشعراء والأدباء تحت مظلمة الانفتاح ، وراحوا يهذون بكلام شديد الهياقة وفير الدخل ، وظهر لون جديد من ألوان الشعر لم يكن لمصر عهد به من قبل ، اطلقوا عليه اسم شعر المجون ، وسماه المصريون الشعر الحلمنتيشى ، ولمع من بين هؤلاء الشعراء ابن مكنسة وابن دنيال وابو الرقعمق . وكان الخلفاء يقطعونهم الاقطاعيات . وصار لبعضهم قطعان الابل والغنم ، واقتنوا الدور الفاخرة على شاطىء النيل . وغاب عقل مصر تماما ، وتاه فكرها فى ضباب الحشيش ، واصبحت أيام مصر كلها أعيادا ، تفنن الفاطميون فى خلقها ، كما برعوا فى اقامة المهرجانات ، تفسخت الدولة وتفشخت . وعندما تولى الخليفة المستنصر بالله حدث لمصر ما كان متوقعا . نشبت المجاعة أظافرها فى البلاد واستمرت سبع سنوات . (أكلت الناس بعضها بعضا) وبيع فيها القمح بثمانين دينارا لكل أردب ، ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف بخمسة عشر دينارا . وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط ، حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير ، وبيع كل قط بثلاثة دنانير ، وقيل ان الكلب كان يدخل الدار فيأكل الطفل فى المهد وأبوه وأمه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض من شدة الجوع وعدم القوة ، وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد من الناس القوا عليه هذه الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب ، فاذا صار عندهم ، ذبحوه فى الحال وأكلوه

بعظامه وقيل ان الوزير ركب على بغلة ودخل الى دار الخلافة ، فلما نزل عنها اخذت عنوة واكلت فى الحال . فامسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب . ولما باتوا . اصبحوا لم يجدوا أحدا من المشانيق ولم يبق منهم غير العظام على الأرض ! وساءت الأحوال اكثر ، فقيل ان فى الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق . وكان فيها نحو عشرين دارا بيعت كلها بطبق من الخبز ! وذكر الشيخ ابوالفرج الجوزى أن امرأة حاولت ان تبيع كنزا من اللؤلؤ مقابل كيس من الطحين ، ولكنها لم تجد من يبيع لها الكيس مقابل الكنز ! وبسبب المجاعة ، مات نصف أهل مصر ، وقيل ان الرجل كان يمشى من جامع ابن طولون الى باب زويلة فلا يصادف احدا على الاطلاق .
واصاب الخليفة نفسه الفقر الشديد ، فباع سلاحه وملابس جنده ، ثم باع رخام قبور اجداده . ولم يبق عنده من آثار النعمة الا سجادة رومية وقبقاب مرصع بالجواهر ، ولكن سيظل التاريخ يذكر لهذا الخليفة الفاطمى ان فى عهده اصبح المسلمون فى مصر أغلبية ساحقة ، واصل الحكاية أن مصر ظلت منذ الفتح الاسلامى والى عهد المستنصر بالله أقلية مسلمة وأغلبية قبطية تدفع الجزية وبعدما انحسرت المجاعة وهدأ الحال وصفا الجو للخليفة ، اصدر فرمانا بمنح القبط كل الحقوق التى كانوا محرومين منها فى الماضى ، فسمح لهم بالدخول فى وظائف الحكومة والاقامة فى المدينة وارتداء الملابس العادية ، وكانوا فى الماضى يرتدون زيا خاصا بهم ، وحرم عليهم ركوب الدابة بالمقلوب ، كما سمح لهم ببناء الكنائس ، وهبت معارضة شديدة ضد الاجراءات الجديدة وتكونت جمعيات سرية من المسلمين ، كان من اهدافها احراق كنائس القبط التى انشئت فى القاهرة . وفى المقابل تكونت جمعيات سرية قبطية . أخذت تحرق مساجد المسلمين . وانتشرت الفتنة الطائفية حتى حدث ذات يوم أن ضبط بعض القبط يشعلون النار فى الجامع الأنور وعثر معهم على صفيحة نفط ومجموعة من الخرق القديمة . فقام العامة بسحل هؤلاء فى الشارع . ثم اشعلوا فيهم النار واحرقوهم ! ثم راحوا يجوبون الشوارع يسحلون كل من يلقون من الاقباط ويشعلون النار فى دورهم وكنائسهم . ولم تهدا الفتنة الا فى اليوم التالى ، وعندئذ اصدر الخليفة فرمانا اخر بشنق مائتى مسلم وتعليقهم على الأشجار ، من شاطىء النهر حتى قصره عقابا لهم على ما حدث فى اليوم السابق ! ولكن جنود الخليفة البلهاء سلكوا الطريق السهل . فذهبوا الى شاطىء النيل والقوا القبض على مائتى فرد من الفلاحين الذين حضروا من الريف لبيع البيض والخضراوات والزبد فى القاهرة ، وشنقوهم بعد ما سلبوا منهم بضائعهم وعلقوهم على افرع الشجر !

وخيم على مصر صمت رهيب . واستمر عدة أشهر . وكان ينذر بهبوب العاصفة . وخاف الخليفة من ثورة عارمة . فاصدر فرمانا جديدا بأن يعود الاقباط الى الحال التى كانوا عليها فى الماضى . فحرم عليهم دخول المدينة والسكن فيها كما حرم عليهم الالتحاق بالوظائف الحكومية . وأجبرهم على ارتداء الزى القديم . وركوب الدابة بالمقلوب !

وفى ذلك اليوم بالذات . يوم صدور ذلك الفرمان . تحول مئات الألوف من الاقباط الى الدين الاسلامى . خصوصا هؤلاء الذين كانوا قد التحقوا بوظائف الحكومة والذين سكنوا المدينة وتعودوا ارتداء الزى العادى وركوب الدابة كالمعتاد ! وبعد ذلك بسنوات ادعى الفاطميون ان رأس الشهيد الحسين قد انتقل الى القاهرة من عسقلان واحتفلو بتلك المناسبة احتفالا عظيما . وأقاموا مشهدا فخما لرأس الحسين وانشأوا مسجدا كبيرا . ومنذ تلك اللحظة أصبح الاحتفال بالمولد الحسينى هو أهم وأكبر احتفال دينى فى مصر واستمر كذلك حتى يومنا هذا !

وعندما جاء الخليفة العاضد الى السلطة جاءت ايضا نهاية الفاطميين فى مصر . ويقال ان المعز لدين الله حين دخل مصر طلب بعض المشايخ ان يكتبوا له القابا يتلقب بها خلفاء الفاطميين . فكتبوا له عددا من الألقاب كان اخرها العاضد . وشاءت الصدف ان يكون العاضد هو أخر الخلفاء بالفعل !

وقد دخل الفرنجة مصر فى عهد العاضد واحاطوا بالقاهرة . فاضطر الخليفة الى احراق مدينة الفسطاط وظلت النيران مشتعلة فى المدينة شهرين كاملين ! وعندما استنجد الخليفة بملوك العرب وأرسل خصلة من شعر حريمه مع رسوله . استجاب السلطان نور الدين بن زنكى لنداء العاضد وأرسل له جيشا كبيرا على رأسه البطل صلاح الدين . وقد نجح صلاح الدين فى طرد الفرنجة من مصر . وشنق الوزير شاور ابن مجير الدين السعدى على باب القاهرة لأنه هو الذى أمر بحرق مدينة الفسطاط . ثم تولى صلاح الدين الوزارة فى عهد العاضد وتلقب بالناصر . وقام بقطع الخطبة فى مصر عن اسم العاضد . فحصل للاخير قهر عظيم . ثم اقدم على الانتحار بأن ابتلع فص الماس فمات من يومه . وهكذا انتهت دولة الانفتاح وكأنها لم تكن . رغم انها استمرت ٢٦٨ سنة واعتمدت على الأجهزة والدعاية وجيش كبير من البصاصين ! ولحظة سقوطها لم يرتفع من مصر صوت يدافع عنها . ولم تترك أحدا يدين بمذهبها . لأن الدولة الفاطمية لم تحول شعب مصر من مذهب السنة الى مذهب الفاطمية . ولكنها حولت

الدولة المصرية . فلما سقطت الدولة سقط معها مذهبها وذهبا معا الى الفناء !

وجاء البطل صلاح الدين ليعيد صياغة الحياة فى مصر من جديد ، وليكشف اللثام عن وجهها العربى لأول مرة ، واذا كان التاريخ يحكى ان صلاح الدين هو الذى هدم الدولة الفاطمية ، فالحقيقة ان الدولة الفاطمية هى التى هدمت نفسها ، كانت دولة قصيرة النظر ، تفشت فيها الخرافة ، وتحكمت فيها الطائفية ، ونخرت فى عظامها عوامل الانحلال ، من فساد ومحسوبية ورشوة ، وعندما استصفى صلاح الدين أموال العاضد بالله ، اخر خليفة فاطمى ، وجد من بين ممتلكاته اربعة الاف جارية . قيل انه وطئهن جميعا ، وكان الجيش هو مدخل صلاح الدين الى مصر العربية . سرح العساكر المجلوبة من العجم والترك والارناؤوط والتركمان ، وأسس جيشا حديثا قوامه ثلاثة عشر الف جندى عربى ، وسمح لأول مرة للفلاحين المصريين بدخول الجيش . وقبل ان ينطلق فاتحا بيت المقدس ، محررا فلسطين من ايدى الافرنج ، كان قد أعاد ترتيب البيت من الداخل . نشر العدل ووزع الأعباء بالتساوى ، واقام قاعدة اقتصادية متينة مكنته من الحرب لسنين طويلة ، واستعان بعدد كبير من المستشارين اصحاب الفضل والرأى . بغض النظر عن أديانهم . فهم جميعا عرب وهذا يكفى . الأسعد بن مماتى من اقباط مصر . وابن ميمون يهودى عربى . وبهاء الدين قراقوش خصى حبشى ، والقاضى الفاضل ، والعالم الدينى الأمين من عربستان ، وسنقر الاخلاطى من كردستان . وكانت اولى معاركه العظيمة عند قرية عربية صغيرة هى قرية أم الرشاش (ايلات الأن) وانزل بالصليبيين هزيمة منكرة . وكان حطين هى معركته الكبرى . وكان جيشه يربو على المائة الف ، من بينهم سبعون ألفا من أهل مصر . ومن هناك مضى من نصر الى نصر ، حتى دخل القدس وصلى فى المسجد الاقصى . لم يصل كغيره فى حراسة جنود الاحتلال . ولكنه صلى ومن حوله قواده المنتصرون ، وعساكره المظفرون ، وفوق رأسه تخفق رايات العروبة ! ومات صلاح الدين بعد ما دخل التاريخ من أوسع ابوابه ، ولقى ربه وهو مقيم فى الشام . ومات وهو فوق السبعين ، بعدما حكم ما يقرب من ربع قرن وستعرف صلاح الدين من سطور قليلة كتبها عنه ابن اياس . نعم ستعرف لماذا انتصر صلاح الدين ؟ ولماذا انهزم غيره ؟ ولماذا نجح ؟ بينما فشل الاخرون ! يقول ابن اياس : صلاح الدين خلف من الأولاد سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه . ولم يخلف فى خزائنه لاذهبا ولا فضة ، ولم يخلف

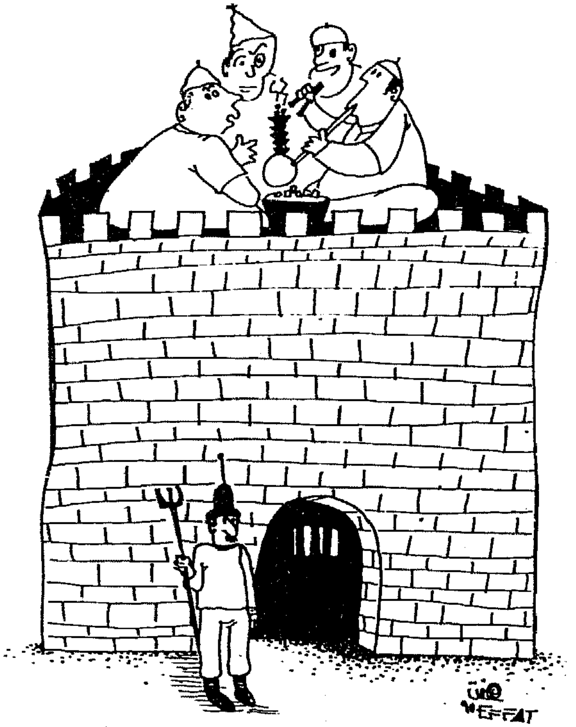
قرية ولا بستانا ، ولا ملكا ولا ضيعة ، وانفق جميع ما فى الخزائن على التجاريد والغزوات ، حتى فتح البلاد التى كانت بيد الفرنج !

ولكن الحظ النكد ان الملوك الذين جاءوا بعد صلاح الدين لم يكونوا جميعا من هذا الطراز . كان الملك العزيز بالله العمل الوحيد السيىء لصلاح الدين ، فهو الذى اختاره ليخلفه على العرش . وكان ضعيفا متهالكا . اباح الدعارة وتدخين الحشيش ، وتفرغ تماما للحريم والليالى الملاح ، وحاول هدم الهرم الأصغر ، وانفق فى ذلك أموالا طائلة لاعتقاده ان تحت الهرم كنزا ثمينا من الذهب ! وكان الملك المنصور عكس أخيه ، جادا وفاضلا ، ولكن صراعات السلطة أدت به فى النهاية الى السجن . وجاء الملك العادل وكان نسخة من أبيه . كانت هوايته العدل والغزو فى سبيل الله . وكان طويلا جسيما ، مدور الوجه ، شرها فى الأكل ، يأكل الخروف وحده ، وقد مات مثل أبيه فى دمشق ودفن هناك . وجاء الملك الكامل . وجاءت عساكر الصليبيين لتغزو مصر نفسها ! تمكنوا من النزول فى بر دمياط . واحتلوا المدينة وحولوا الجامع الى كنيسة ، وأقاموا حول دمياط سورا منيعا ! ولكن الملك الكامل الف جيشا من الفلاحين ،وحارب بهم ستة عشر شهرا حتى تمكن من طرد الصليبيين من دمياط . وانشأ خلال الحرب مدينة المنصورة أشهر مدينة مصرية بعد القاهرة والأسكندرية وأسوان وبورسعيد . ولكنها اخف مدن مصر دما ، واجملها نساء ، واطيبها هواء . كما جاء فى وصف المؤرخين السابقين ! ثم جاء الملك العادل ولكنه لم يحكم طويلا ومات فى السجن . ثم جاء الملك الصالح ليضرب مصر والعروبة فى الصميم . فهو الذى استكثر من المماليك التركمان . فلما ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس ، وينهبون البضائع من الدكاكين ، بنى لهم قلعة فى الروضة وأسكنهم فيها وسماهم البحرية ! وفى عهده جاء الصليبيون مرة أخرى واحتلوا دمياط وزحفوا داخل الوجه البحرى ، وهب المصريون بقيادة الملك الصالح لمقاتلة الغزاة . ولقد بدأ الرجل المعركة بمحاسبة المسئولين عن هزيمة دمياط . وأمر بشنق حاكم دمياط وخمسين من الأمراء كانوا موجودين داخل المدينة لحظة نزول الصليبيين فيها . وتركوها تواجه مصيرها وفروا تحت جنح الظلام ! ولكن الملك الصالح مات والمعركة على أشدها . فكتموا خبر موته عن العسكر وعن الشعب ، وأرسلوا فى طلب ابنه توران شاه ، فجاء على عجل ولكن الاحداث كشفت عن مركز القوة الحقيقى الذى كان يحكم البلاد من خلف ستار . وهى الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح . وكانت هى التى كتمت خبر

موت الملك الصالح وهى التى أرسلت تستدعى ابنه توران شاه . وهى التى حكمت البلاد خلال تلك الفترة ، بين موت الملك وحضور ابنه . وهى التى قادت المعركة ، وكان حولها فرسان المماليك البحرية ، الأمير اقطاى والأمير عز الدين التركمانى والأمير قطز والأمير ببيرس وكلها اسماء ستلمع فى تاريخ مصر والعرب . ولم يكن المماليك وحدهم حول شجرة الدر . كان هناك مصريون ارتقوا الى مرتبة القيادة . السيد البدوى وجماعة السطوحيين واحمد المراكبى الذى هجم بالمقاليع والحجارة على جيش الغزاة (فكانت ساعة تشيب منها النواصى . وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصى) وانكسر جيش الافرنج وقتل منهم اثنا عشر الف جندى ، وأسر من ملوكهم سبعة ومن عساكرهم خمسة عشر الف انسان لم يستطيعوا دفع الفدية فوزعوهم على الأعيان ووجوه الناس ليقوموا باعمال الخدمة ، هكذا اشتغل الفرنسيون من وراء البحر خدما لدى الفلاحين لأول مرة ! ولكن اغلب هؤلاء اعتنقوا الاسلام وتزوجوا من بنات الفلاحين ، وانجبوا نسلا لعله السبب فى شهرة المنصورة حتى وقتنا هذا ، أما مصر فقد سقطت نهائيا فى قبضة الفرسان ، وابعدوا الفلاحين عن السلطة وعن الجيش . ودخلت مصر منذ ذلك الحين عصرا اخر مختلفا .

هذا هو عصر المماليك ! !

□ □ □



الفصل الخامس

العبرة والدرس

وإذا كانت دولة صلاح الدين قد دالت وآلت الى صنف المماليك . فإن فترة حكم صلاح الدين هى التى ينبغى أن نتوقف عندها لنأخذ العبرة ونتعلم الدرس . فقبل صلاح الدين كان ملوك العرب يحكمون ـ تحت ظل دولة الصليبيين ـ كان الساحل العربى تحت الاحتلال من اللاذقية الى دمياط . وكانت الأمة العربية فى حالة ترد ، والحكام العرب فى حالة عجز ، والمواطن العربى فى حالة يأس . وكان المسافر العربى الذى يريد أن يسافر من مصر الى بر الشام يدفع رسوم مرور للفرنجة أكثر من مرة على الطريق . وكان عساكر الفرنجة الذين سئموا العيش فى الصحراء يبددون مللهم باحتجاز العرب المسافرين عدة أيام ، وأحيانا كانوا يضربونهم بقسوة . وفى مرات كثيرة كانوا يسرقون متاعهم ونقودهم ويعتدون على حريمهم . وكان القتل نصيب من يقاوم أو يحتج . وهذه المساحة الرهيبة بين تجبر الفرنجة واستسلام الأنظمة العربية ، بين غطرسة الصليبين واستكانة الولاة والخلفاء ، بين التفوق العسكرى الصليبى وهزيمة جيوش العرب . هذا التناقض الرهيب ، كان لابد ان يكون له رد فعل مساو له فى القوة ، مضاد له فى الاتجاه . وجاء رد الفعل هذه المرة من جانب الجماعات الدينية . وكان تطرفهم رد فعل لضعف الحكومات العربية . وكلما ازداد الضعف من جانب الحكومة . ازداد البطش من جانب هذه الجماعات . وكلما تمسك الولاةوالحكام بالجبن والذلة ، أبدى هؤلاء ضروبا من الشجاعة بلغت حد الجنون ، لدرجة أن بعضهم كان يقتل نفسه لمجرد ابداء شجاعته

واستهانته بما يحرص عليه الولاة وكان أخطر هذه الجماعات الدينية ، هى الجماعة التى عرفت باسم الحشاشين ، والتى أخذت لنفسها مقرا ومستقرا في قلعة (الموت) في منطقة جبلية تقع على الحدود الفاصلة بين إيران وافغانستان . وكانت هذه الفرقة الاسلامية التى عرفت بهذا الاسم قد حددت هدفها بدقة . وهو الاطاحة بالنظم القائمة وتنصيب الامام المختار صاحب الحق في السلطة . وكان منطقهم بسيطا وشديد الاقناع . ففى رأيهم أن المسئول عن الوكسة والنكسة التى اصابت العالم الاسلامى هى هذه النظم الضعيفة المتهالكة التى تدافع عن نفسها اكثر من دفاعها عن الأمة ، والتى تحرص على استمرار النظام أكثر من حرصها على حماية الأرض ! ولذلك ـ في مفهوم هؤلاء ـ لابد من العودة الى الجذور والتمسك بالأصول القديمة وأن يتولى أمور المسلمين من هو قادر على صيانتها ، ولا أحد اقدر من الامام المختار ، الذى هو من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام . ولم يكن هذا فقط هو الهدف . ولكن كان هناك هدف اخر . فقد كان على النظام الجديد الذى سيقوم على انقاض النظم المنهارة ان (يملأ الدنيا بالعدل والمساواة) كما هى ممتلئة الآن بالظلم والاضطهاد ، وأن يقيم المساواة بين الضعيف والقوى . ويأتى بالسلام والرخاء . وكانت جماعة الحشاشين هى أخطر الفرق الدينية المتطرفة وأوسعها نشاطا . وهى في الاصل فرقة منشقة عن الإسماعيلية . وهى الفرقة الأم التى انجبت اخطر وأعظم الحركات الدينية المتطرفة . وأهمها القرامطة . أما مؤسس فرقة الحشاشين فهو شخص يدعى حسن الصباح . ولد في مدينة (قم) وهى نفس المدينة التى عاش فيها وتعلم في مدارسها الامام الخمينى . ولكن حسن الصباح لم يكن فارسيا . ولكنه جاء من الكوفة بالعراق . ويقال انه من اصل يمنى ، ويقال أيضا انه ينحدر من أصلاب قبائل حمير القديمة ، ليس مهما أصل حسن وفصله . المهم انه استولى هو وانصاره على قلعة الموت . وراح يبث الرعب في ارجاء الولايات العربية الممزقة ويرهب ولاة العرب الذين اصابهم الوهن !

وكان أول ضحايا الحشاشين هو الوزير نظام الملك ، وقد قتله رجل من الجماعة بأن طعنه بآلة حادة في جنبه بينما كان محمولا على هودج من الساحة الى خيام حريمه .

وقال الحشاش الذى قتله (ان قتل هذا الشيطان هو أول البركة !) وبدأت فرقة الحشاشين تمارس عملها في قتل كبار المسئولين داخل الحكومات العربية (الذين تقع عليهم مسئولية ما جرى في انحاء العالم

العربى من هزيمة وظلم وتسليم امام عدو الله) وكان الوزير المهيب وقائد الجيوش الأفضل هو الضحية الثانية ، وقد لقى الرجل مصرعه فى القاهرة على يد (ثلاثة رفاق من حلب !) والحق يقال ان زعيم الحشاشين كان شخصية فذة من شخصيات العصور الوسطى . وكل الذين تناولوه من المؤرخين سلطوا الضوء على زهده وتقشفه . وقد عاش نحو اربعين عاما داخل قلعة (الموت) لم يغادرها قط ، ولم يسمح بشرب الخمر ، ولم يتهاون أمام أى خطأ . لدرجة انه قتل ولديه بنفسه . عندما ارتكبا أخطاء من النوع الذى يعتبره (لا يغتفر) . ولقد بلغ من سطوة حسن الصباح على مريديه ان كان يأمرهم بالقفز من فوق اسوار القلعة فيقفزون الى الهاوية على الفور ، والأعجب انهم كانوا يشعرون بالمتعة وبالفخر معا ، وهم فى طريقهم الى القاع حيث الصخور المدببة ! وكان يختار بنفسه من أعضاء التنظيم من يقوم بمهمة الاغتيال ، ثم يسلمهم خناجر مسمومة مخصصة لهذه المهمة . وقد لفت الحشاشون انتباه أمم الغرب بعد ان اغتالوا طعنا بالخناجر أحد قادة الحملة الصليبية وهو كونراد أوف مدنتفيرات أمير مملكة القدس . ولكن الملاحظة الغريبة أن هؤلاء الحشاشين كان هدفهم الرئيسى الأمراء العرب ووزراء دولهم الضعيفة .

ويصف الرحالة المشهور (ماركو بولو) مملكة الحشاشين فيقول : انهم يسمون شيخهم فى لغتهم (الادين) علاء الدين . وقد قام بتحويل واد عظيم بين جبلين الى حديقة هائلة . وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والماء والعسل . واقام على خدمة الحديقة وروادها نساء فاتنات من أجمل نساء العالم ، يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية . وكان شيخهم يريد أن يوحى لاتباعه ان مايرونه فى الواقع هو الجنة نفسها .

ويبدو أن ما كتبه ماركو ومؤرخو الحملات الصليبية حول الحشاشين قد شد انتباه الأوروبين تماما الى الدرجة التى تأثروا بهم . حتى ان كلمة ارهابى فى اللغات الأوروبية اشتقت من كلمة حشاش ، وصارت كلمة الاغتيال هى نفسها كلمة حشاشين باللغة العربية !

ولكن ما يهمنا فى هذا المجال ليس تاريخ الحشاشين وافعالهم . وانما ما فعلوه مع صلاح الدين ، وما فعله صلاح الدين بهم . ولقد انتشر الحشاشون من قلعة (الموت) على الحدود بين ايران وافغانستان ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يجدوا لأقدامهم موضعا الا فى سوريا . وهى مسألة غريبة للغاية ولكنها تتكرر دائما ـ لاحظ العلاقة الوطيدة بين سوريا وايران فى الوقت الحاضر ـ وكانت أول ضربة لهم فى سوريا هى قتل

خلف وكان أميرا على مدينة حماة فى الغالب ، ثم قتلوا الأمير مودود حاكم الموصل . ثم قتلوا براق بن جندل احد الأمراء المحليين فى نواحى بانياس . ولكن كل هذه الحركات كان هدفها الحقيقى هو القاهرة . فقد كان من رأى الحشاشين ان القاهرة هى الرأس ، فإذا فسدت فسد الجسم كله ، واذا صلحت طاب الجسم واستراح . ولذلك وبعد ان قتلوا قائد الجيوش (الافضل) ضربوا ضربتهم الكبرى واغتالوا الأمير نفسه ، وقام بعملية الاغتيال عشرة حشاشين ، وبعد أن دالت دولة الفاطميين وقامت دولة الأيوبيين على يد صلاح الدين ، وعكف على إصلاح الحال داخل مصر ، حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين مرتين ، باعتباره (واحدا مثل الآخرين) ولأنه قضى على دولة الفاطميين التى كان الحشاشون يطمعون فى وراثتها !

ولقد ادرك صلاح الدين خطر الحشاشين بعد هاتين المحاولتين فقرر سحقهم . وبالفعل اعد حملة كبيرة وتقدم فى اراضى الحشاشين وحاصرهم زمنا ، ولكنه لم يلبث ان فك الحصار وانسحب ! ويقول بعض المؤرخين إن صلاح الدين انسحب خوفا على حياته وان الحشاشين استطاعوا خلع فؤاده بما كانوا يؤدونه من حركات تبلغ حد المعجزات . ولكن هؤلاء المؤرخين كانوا من نوع مؤلفى المسلسلات التليفزيونية هذه الأيام . لأن الحقيقة ان صلاح الدين انسحب بعد ان جاءته الأنباء بهجوم الصليبيين على وادى البقاع . وكان لابد من ان ينسحب لكى يؤمن ظهره ، ولأنه لم يكن قد استكمل بناء جيشه بعد . وهو الجيش الذى سيحارب الصليبيين ويهزمهم فيما بعد . واذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن هجوم صلاح الدين على معاقل الحشاشين كان خطأ فادحا . فلم يكن الحشاشون فرقة بقدر ما كانوا فكرة ولو قضى صلاح الدين على هؤلاء الحشاشين الذين هاجمهم لظهر حشاشون كثيرون بعد ذلك . ولكن الخطوة التى فعلها صلاح الدين بعد ذلك كانت هى الحل الوحيد للقضاء على مشكلة الحشاشين . وهذه الخطوة هى بناء جيش قوى من أبناء مصر ، مطعما بفرق عربية ، وعلى رأس الجيش قادة مدربون على الحرب وقادرون عليها . وعندما بدأ زحف صلاح الدين من القاهرة أخذ وقتا طويلا ، ولكنه لم يتوقف إلا فى القدس . وعندما دخل القدس وصلى مع جنوده فى المسجد الأقصى ، كانت هذه هى بداية النهاية لدولة الحشاشين . لقد ظهر الحشاشون فى عصر الانحطاط ، وعلا نجمهم فى زمن الهزيمة ، واصبحت كلمتهم هى العليا فى أيام الانكسار . وكانت الاسباب التى قامت فرقتهم على اساسها ، أن الأمة فى

حالة انهيار ، والنظم العربية فى حالة استسلام ، وانها سبب الهزيمة ، وزوالها يؤدى الى تحقيق النصر ، ولكن هاهو صلاح الدين يقلب الموازين ، وهاهو جيشه العظيم يزحف من القاهرة فيفتح القلاع ، وتسقط فى يده المدن ، وهاهم أسرى الصليبيين بالالوف مقيدون بالاغلال يتهادى موكبهم فى شوارع دمشق والقاهرة . هاهى اعلام النصر ترفرف من جديد . وهاهى الروح تعود الى الأمة الميتة ، والنبض يعود الى الشارع العربى الذى كان قد تعفن وفاحت رائحته منذ زمن بعيد . لقد ضرب صلاح الدين الفكرة فى الصميم وانزوى الحشاشون بعدها فى مناطقهم ، وفقدوا بريقهم السابق ، ولم يعد يهتم بهم أحد ، أو يخشاهم أحد ..

وتآكلت فرقة الحشاشين طوال العهد الأيوبى ، فلما قامت المماليك ، كان من السهل على الملك الظاهر بيبرس كسر شوكتهم والقضاء على دولتهم وسحقهم حتى العظام . ولكن الحشاشين الذين حاربهم بيبرس وقضى عليهم ، لم يكونوا هم انفسهم الحشاشين الذين كانوا يحتلون الساحة قبل مجىء صلاح الدين ، أو بمعنى اصح قبل انتصاره !

كانوا مجموعة من الأرزقية ، أشبه بأعضاء حزب الكهرباء هذه الأيام . لقد أفقدهم الانتصار اسباب دعوتهم وأسباب قوتهم ، وكان وجود الصليبيين فى بلاد العرب ، وأخذ الجزية منهم ، واذلالهم على مرأى ومسمع من حكامهم هو السبب الذى جعل الحشاشين فى أعلى مكان ، أما الآن ، فقد انتهى أمرهم ، وكان القضاء عليهم تحصيل حاصل . ونجحت أول حملة قادها الظاهر بيبرس فى القضاء عليهم ، ولم تنجح مئات الحملات التى شنها ضدهم حكام الأمس ، وامارات ما قبل الانتصار .

وما أشبه الليلة بالبارحة . لعل السبب فى انتشار الفرق المتطرفة الآن ، هو هزيمة الأمة كلها على يد ثلاثة ملايين كلب يهودى ، استطاعوا انتزاع فلسطين وهضبة الجولان ، ولذلك فأى حرب ضدهم لن تجدى مادام صلاح الدين لم يظهر بعد ، ومادامت الأمة فى حالة انهيار ، بعضها يحارب فى الاذاعة ، وبعضها يحارب بالمنشورات ، وبعضها يبحث عن حل وسط على موائد المفاوضات . والأمم تأكل نفسها اذا لم تستطع ان تأكل اعداءها . وهذه الفرق المتطرفة لاتظهر الا فى زمن العجز ، وفى عصور الضعف ، وعندما يصاب الناس بالوهن . وقيل وما الوهن يارسول الله ، قال حب الدنيا . وكراهية الآخرة .

انها حالة تتكرر كثيرا ، وليس من سبيل للخروج منها الا عن طريق واحد واذا أردت ان تعرف الحل ، فاقرا هذه السطور من ثانى !

□ □ □



الفصل السادس

وهل يموت النهر؟

هذا عصر البطولة والمغامرة . ومن هنا والى حقبة طويلة من الزمن ، سيصبح السيف هو سيد الموقف . لا مكان هنا الا للجسور ، ولا قيمة الا للشجاعة ، وستشهد مصر طرازا من الحكام كلهم قتلة وكلهم مقتولون . هؤلاء هم المماليك وسيكون الحكم مهنتهم ، والحرب هوايتهم ، ونهب مصر رسالتهم الوحيدة في الحياة . وسيقتل عز الدين ايبك التركمان اقطاى ، وستقتل شجرة الدر عز الدين وستقتل الحاشية شجرة الدر وسيلقون بجثتها من فوق القلعة ، وستبقى جثتها في العراء ثلاثة أيام بلا دفن ، وسيفعل الفاحشة فيها وهى ميتة بعض أولاد البلد المساطيل ، سيسلبون تكة لباسها ، وكانت من الحرير الهندى ، وفيها جوهرة تزن ربع رطل ، وسيأتى الأمير قطز ليقود جيش مصر في واحدة من أخطر معارك العروبة ، وسيبيد جيش التتار في عين جالوت بعد ما كان التتار قد خربوا مدينة بغداد وأحرقوها وسحلوا الخليفة العباسى ، وأسرفوا في القتل ، حتى صار نهر دجلة في لون الدم . ولكن بيبرس البندقدارى سيقتل الأمير قطز ويتسلطن على عرش مصر ، وسيمتد حكمه لسبعة عشرعاما تعقب فيها التتار حتى أخضعهم لحكمه ، وفرض عليهم الجزية ، وزوجوه بنت الخاقان الأعظم ومات الظاهر بيبرس وترك عشرة من الملوك يقبلون الأرض بين يديه وبعدما نقل الخلافة من بغداد وأقامها في مصر .

وأصل الحكاية أنه عندما أجتاح التتار بغداد وقتلوا الخليفة العباسى شر قتلة ، فر عدد من العباسيين الى داخل الصحراء ، ولجأ بعضهم الى

مضارب العربان . ثم انقطعت اخبارهم بعد ذلك . فلم يعثر أحد لهم على اثر . ولكن فجاة وفى عهد الملك الظاهر بيبرس وفى عام ٦٦٠ هجرية على وجه التحديد . جاءت الاخبار بأن شخصا من بنى العباس يسمى الامام احمد بن امير المؤمنين الظاهر بامر الله . وهو عم الخليفة المستعصم بالله واخو الخليفة المستنصر بالله . وكان قد لجا الى بعض العربان فى الصحراء واستقر هناك لمدة أربع سنوات ثم حضر الى مصر فجاة مع جماعة من العربان . فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس وصول الامام أحمد الى ناحية القرين بالشرقية خرج فى موكب مهيب لاستقباله فلما وقعت عين الملك الظاهر على الامام أحمد ، نزل عن فرسه ، ونزل الامام أحمد عن فرسه هو الآخر . وتعانق الرجلان وسط هتافات الجند ورجال الحاشية . وكان الامام احمد اسمر اللون من أم حبشية وعليه مهابة ، فركب مع الظاهر بيبرس وقصدا مدينة القاهرة فدخلا من باب النصر ، وشق الموكب مدينة القاهرة الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وجاء الناس من أنحاء مصر كلها ينظرون الى الخليفة العباسى ويرحبون به ، ونزل الامام بقاعة الأعمدة بالقلعة وعقد الظاهر بيبرس مجلسا ضم القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الطرق الصوفية والأعيان وسائر الأمراء وأرباب الوظائف . فلما اكتمل المجلس جلس الظاهر بيبرس بين يدى الامام أحمد على الأرض وعلى ركبتيه . وكان يتصدر المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . وشهد الحاضرون جميعا بأن الأمام أحمد هو بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله وعم أمير المؤمنين المستعصم بالله فلما ثبت نسب الامام أحمد ، بويع بالخلافة وتلقب بالمستنصر بالله ، ثم قام من فوره بمبايعة الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة وعهد اليه بأمر البلاد الشامية والمصرية ، وما سوف يفتح على يديه من بلاد الكفار . فلما كان يوم الجمعة التالى ، خطب الخليفة العباسى بنفسه من فوق المنبر . بجامع القلعة ، وهو يرتدى السواد شعار العباسيين ، فخطب خطبة بليغة جاء فيها (الحمد لله الذى أقام لبنى العباس ركنا وظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام ، ولا يقوم الجهاد الا باجماع كلمة العباد . فما سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم ، ولو شاهدتم أهل بغداد حين دخل التتار دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا النساء والأطفال والرجال ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم وأذاقوهم العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضجات من ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ

خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه . وأما السلطان الظاهر بيبرس ركن الدنيا والدين ، فقد قام بنصرة الامامة ، وشرد جيوش الكفر ، فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا النية تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، والحرب سجال ، والعاقبة للمتقين . وأنا استغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين) وبعد يومين خرج السلطان الى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسى وحوله الأمراء ، ثم وقف القاضى فخر الدين بن لقمان كاتم السر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة للسلطان . فلما فرغ من ذلك ارتدى السلطان زيه الرسمى ، وهو جبة سوداء وعمامة سوداء ، وطوق ذهب فى عنقه ، وقيد ذهب فى رجليه ، وسيف ذهب يتدلى من جنبه . ثم ركب على فرس أسود له بوت أبيض ، ودخل القاهرة من باب النصر ، وشق المدينة من باب النصر ، ومشت أمامه الأمراء حتى القلعة ، وبعد أسابيع قليلة من إقامة الامام فى القاهرة . أخذ فى تجهيز نفسه للعودة الى بغداد ونزعها من يد التتار ، وأمده السلطان وجهزه بكل ما يلزم لاسترداد بغداد من أيدى التتار ، وأرسل معه خمسمائة مملوك وعشرة طواشية وأعطاه مائة وستين الف دينار من الذهب العين . ونزل الامام أحمد على رأس الحملة ومعه السلطان بيبرس ، وسار جيش الامام الى دمشق أولا حيث تخلف السلطان هناك ، ومضى الأمام احمد بجيشه الى بغداد وعندما وصل الامام أحمد المستنصر بالله بجيشه الى مكان يسمى بالأنبار خرج اليه القائد المغولى قرابغا فى عسكر كثيف ، فحمل الامام على عساكر التتار فكسرهم كسرة قوية . فلما دخل الليل هجم التتار على عساكر مصر وأحاطوا بهم وأبادوهم عن آخرهم فلم ينج منهم أحد ، ونهبوا ما معهم من قماش وأموال وغير ذلك ، أما الامام أحمد المستنصر بالله ، فلم يظهر له أى أثر بعد ذلك ويقال أنه قتل فى المعركة تحت جنح الليل ، وبعد ذلك بسنوات جاءت الأخبار بوصول شخص آخر من بنى العباس يقال له الامام أحمد ايضا ، وهو من أولاد الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بن المقتضى بن محمد الذخيرة ، فلما وصل الى المطرية ، خرج السلطان والأمراء لاستقباله ، ثم صنعوا له نفس الموكب الذى صنعوه للخليفة أحمد السابق ، وشق موكب الامام والسلطان القاهرة الى القلعة ، ونزل الامام الجديد بالبرج الكبير على يمين القلعة ، فأقام أياما ، ثم عقد السلطان مجلسا ثانيا حضره مشايخ العلم ومشايخ الطرق الصوفية والأعيان والقضاة وأرباب الدولة ، وأثبتوا نسبه ، ولقبوه بالخليفة الحاكم بأمر الله . كان هو الآخر أسمر اللون وأمه حبشية ثم أنزله

السلطان فى مناظر الكبش التى أنشأها أحمد بن طولون ، وكانت مطلة على نهر النيل ، وأجرى عليه راتبا يكفيه فى كل شهر . وتقرر أن ينقش أسم الخليفة مع اسم السلطان على الدنانير والدراهم ، وأن يخطب باسمه مع اسم السلطان فى كل جمعة ، ويدعى لهم على المقابر ، وأن يقدم اسم الخليفة على اسم السلطان فى الدعاء وسمح للخليفة بالصعود الى القلعة مرة كل شهر ليهنىء السلطان بالشهر الجديد ! ! ويقول الحافظ ابو شاما (لما تم نقل الخلافة من بغداد الى مصر ، ظهرت مصر على سائر البلاد ، وتشرف قدر سلطانها على سواه من العباد ، وصارت مصر مسكن العلماء والفضلاء والزهاد ، وعلا فيها قدر السنة ، واختفت منها البدعة ، وهذا سر فى بنى العباس ، اذا حلوا بأرض تشرفت بهم على غيرها من البقاع !) وفى ظل الخليفة الجديد ، أخذت مصر بنظام جديد للقضاة . حيث لم يكن بها من قبل غير القاضى الشافعى فقط ، فصار القضاة أربعة . قاضى الحنفية وهو صدر الدين بن سلمان ، وقاضى المالكية شرف الدين بن السبكى ، وقاضى الحنابلة شمس الدين بن نعمات ، وقاضى الشافعية تاج الدين بن بنت الأعز . وعاشت الخلافة فى مصر ، يتعاقب عليها خليفة بعد آخر ، وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون غضب على الخليفة المستكفى بالله بن الربيع سليمان ، فنفاه الى قوص ، وكان السبب أن الخليفة المستكفى بالله لجأ اليه رجل من عامة الناس يشكو اليه من أمر قام به السلطان . فكتب الخليفة على ورقة أمرا الى السلطان يخبره بالمثول بين يديه أو يرسل من ينوب عنه . فلما قرأ السلطان الورقة ، أهمل شأنها وأصرها فى نفسه . ثم أمر بنفى الخليفة بعد عدة أشهر من هذه الواقعة ، ومات الخليفة بعد ثلاث سنوات . وكان المستكفى بالله قد أوصى بالخلافة الى ولده أحمد من بعده . وشهد بذلك قاضى قوص وبعض الشهود . ولكن السلطان رفض الاعتراف بالامام أحمد خليفة . وبقيت مصر بلا خليفة مدة أربعة أشهر ، واقتصرت الخطبة على الدعاء للسلطان دون الخليفة . وبعد أربعة شهور من موت الخليفة المستكفى ، استدعى السلطان شقيق المستكفى بالله الامام إبراهيم ، وولاه الخلافة على حين غفلة . وتلقب بالواثق بالله . ولكن العامة أطلقت عليه لقبا آخر هو المستعطى بالله ، لقذارة نفسه وطمعه ، وعندما مات السلطان محمد بن قلاوون تولى السلطنة السلطان محمد بن أبى بكر فعزل الخليفة إبراهيم ، أو المستعطى بالله ، وتولى الخلافة الامام أحمد بن المستكفى الذى مات بالمنفى ، وتلقب بالحاكم بأمر الله .

وبقيت الخلافة العباسية مستقرة فى مصر ، حتى دخول السلطان ابن عثمان الى القاهرة بعد كسرة الجيش المصرى فى معركة مرج دابق ،ثم هزيمة السلطان طومان باى على أبواب القاهرة . وكما نقل السلطان العثمانى كل الصناع المهرة وأصحاب الحرف الممتازين من القاهرة الى استنابول ، نقل معه ايضا الخليفة العباسى . واستمرت الخلافة العباسية فترة من الزمن فى استانبول حتى أعلن السلطان العثمانى نفسه خليفة على المسلمين .

وهكذا حكمت الخلافة العباسية قرونا عديدة من بغداد فترة ، ومن القاهرة فترة ، ومن استانبول فترة . وكان الخلفاء العباسيون فى واقع الأمر ولفترة طويلة من الزمان ، مجرد رموز لا حول لهم ولا طول . ليس لهم من الأمر شيئا الا قبض الرواتب والصعود مرة كل شهر الى القلعة للتشرف بمصافحة السلطان !

والظاهر بيبرس ترك دنيانا وخلف سيرة عطرة ، لا يزال المطرب يتغنى بها حتى هذه اللحظة ، ولا يزال الفلاحون فى قرى الريف المصرى يتحمسون لبطولاته ويهللون لفتوحاته ويبكون لخبر موته وكأنه مات وشيعت جنازته بالأمس ، وجاء من بعده عدد من الملوك لم يترك أحد منهم أثرا حتى وثب الى السلطة ملوك أسرة قلاوون من المماليك البحرية ايضا ، ولقد حكم أحدهم مصر لمدة نصف قرن معا ،وهو فى الخامسة والسبعين وعزل من السلطة مرتين ، ولكنه تمكن من استرداد عرشه وتفنن فى ابتداع الوان جديد من التعذيب لم يكن للناس عهد بها من قبل وقيل إنه سجن بعض المماليك فى القلعة ومنع عنهم الطعام والشراب لمدة ثلاثة ايام ثم دعاهم الى وليمة فاخرة ولما كشفوا الغطاء عن المائدة وجدوا اطباقا مليئة بالذهب . وقال لأعدائه لقد تآمرتم ضدى من أجل هذا فكلوا حتى تشبعوا وقد مات احدهم على الفور ، وجن جنون الأخرين وماتوا فى سجنهم بالقلعة وظل القتل هو دستور الدولة بعد ذلك ، فقتل الملك المظفر الملك الكامل ، وقتل الناصر ابو المحاسن الملك المظفر ، وكان الملك الناصر أبو المحاسن هو آخر ملوك قلاوون وقد قتل هو الآخر وألقيت جثته فى البحر ولكن نهاية الملك الأشرف شعبان كانت مختلفة عن كل النهايات . فقد وثب عليه مماليك يريدون قتله ، فهرب منهم الى بيت إمرأة تدعى بنت مشتول فلما كان الليل ذهبت بنت مشتول الى المماليك وعرفتهم مكانه ، فقبضوا عليه وعروه من ثيابه وأركبوه حماره بالمقلوب ، وغطوا رأسه بقلنسوة وطلعوا به الى القلعة ، وبعدما استجوبوه . خنقوه بوتر وكسروا ظهره ووضعوه فى قفة

والقوا به فى بئر مهجورة ، وبموته دالت دولة المماليك البحرية وقامت دولة المماليك الجراكسة ، وأقامها الملك الظاهر برقوق .

ولقد حكم مصر مرتين وتصدى لقتال تيمور لنك ، ولقد أنفق فى حروبه للتتار مالا لا يحصى حتى اضطر فى النهاية الى الاستدانة من تجار القاهرة وكتب على نفسه إيصالا بذلك .

غير أن هذه الدولة الفقيرة التى اضطرت الى الاستدانة من التجار لتحارب التتار ، ستتحول بعد فترة قصيرة الى واحدة من أغنى دول الأرض ، وستصبح دولة المماليك الجراكسة هى ممر التجارة العالمية الوحيدة ، وستصبح عملتها هى العملة الصعبة فى العالم وتأتى بعدها عملة البندقية ، وستدفع المراكب جمارك عن حمولتها فى ميناء جدة لخزينة السلطان ، وستصبح الاسكندرية فى عهد الجراكسة هى اهم مدينة على سطح الأرض وستشهد عصرا ذهبيا . كان المرء يستطيع ان يشترى اى شىء من أسواقها حتى طائر النعام وحيوان الفيل ودم الغزال وخصية القرد ، واتسع ملك برقوق حتى صار يخطب باسمه فى تبريز العجم وفى بردين وفى سنجار وفى دوركان وفى توسن والقيروان وفى أرض الروم فى أرزنكان وكان له فى كل يوم فى رمضان عشرون بقرة تذبح وتفرق على الفقراء واتصل به السلطان العثمانى مراد وحذره من عساكر تيمور لنك وطلب منه طبيبا ودواء لالتهاب المفاصل . وقدجهزله الملك برقوق قافلة عليها أدوية ومعها عدد من أكابر الأطباء ، وترك الملك برقوق ابنه الناصر فرج فى حكم مصر ، وقد ناصبه الأمراء العداء ، ولكنه استطاع القضاء عليهم جميعا وقد ازدادت مصر فى عهده هيبة وزادملكها اتساعا . ولكن اين كان الشعب من كل هذا الذى يجرى على أرض مصر ؟ وهل خلت مصر الا من الأمراء والمماليك والعساكر ؟ هل مات الشعب ؟ والجواب : هل تموت الريح ؟ وهل يموت النهر ؟ استطاع المماليك ان يعزلوا شعب مصر عن السياسة وأمور الحكم ، كانوا يستدعونهم لحظة اشتعال المعركة ويصرفونهم فور انتهائها . ويجردونهم من سلاحهم ثم يسلبونهم بعد ذلك أموالهم بالضرائب المتعددة والفرد المختلفة . وما تبقى لدى الفلاحين كان يسطو عليه البدو يخطفونه من أيديهم . كان المماليك هم السلطة . فهم السلطان والأمراء والوزراء وحكام الأقاليم يعاونهم بعض الموظفين من اقباط مصر ، وكان هؤلاء على الفلاحين أشد وطأة من المماليك أنفسهم ، وإن كان ذلك لم يشفع لهم عند المماليك ، فقد مات أغلبهم فى الحبس . ولقى بعضهم مصرعه على الخازوق ، واضطر البعض الآخر الى الهرب والاختفاء بعد ما فقد أمواله وغلمانه وحريمه لتصبح بعد هروبه حلالا بلالا للسلطان .

وبجانب المستوظفين الأقباط ، كان يوجد ايضا بعض أصحاب الفضيلة المشايخ وهؤلاء كانوا يضمنون العيش ما داموا أنهم أفتوا بما يرضى السلطان . فإن فعلوا عكس ذلك ، كان مصيرهم الطرد من الخدمة ، والصياعة في الشوارع ، وربما الموت جوعا وتشريدا في بلاد الله . ولكن الفئة القليلة منهم هى التى لقيت هذا المصير ، والأغلبية العظمى منهم كانت تجد بين نصوص الشريعة السمحاء ما يرضى حكام الأقاليم ونواب الولايات . وهؤلاء عاشوا فى سعة وبحبوحة وتقلبوا فى بلهنية العيش . ومات بعض المشايخ وفى حوزته من الجوارى مائة جارية ومالا يحصى من الغلمان ! أما المماليك فكان كل واحد منهم يعتبر من أثرياء العصر ، وكان فى وسعه ان يفعل كل شىء وأى شىء الا أن يغضب السلطان . فاذا غضب عليه السلطان فقد كل شىء فى لحظة ، ومات شر ميتة أو قضى حياته كلها فى الحبس ، هذا إذا كان حسن الحظ وكان المملوك اذا مات فى حادث أو استشهد فى معركة ، يجلس على باب قصره أكبر مماليكه فيقوم بتصريف الأمور نيابة عن سيده . فاذا كان شابا ووسيما ووقع فى عين الحريم موقعا حسنا ، ترك مكانه عند الباب واستقر به الحال فى الداخل ، ويحل محل سيده فى كل شىء يتزوج الحريم ويملك الجوارى ويحوز كل النفائس والجواهر والأموال . وكان المملوك يموت عادة فى شرخ الشباب . فهو لا يعرف لعبة الا السيف ، ولا يعرف لغة إلا القوة ، وإذا عاش مملوك حتى سن الأربعين كان ذلك مصادفة ، واذا امتد به العمر الى سن الخمسين كان ذلك أعجوبة . وكان البدو يأتون بعد المماليك فهم لا يشتغلون بالزراعة ، وهم لا يستقرون فى مكان فيسهل حكمهم ، وهم ايضا يجيدون صناعة الحرب ، وكانوا يقطعون الطريق على المماليك فى رحلة الحج ، ويهاجمون المماليك كلما نشبت المعارك بين المماليك بعضهم البعض ، وكانوا ينزلون بهم الخسائر الفادحة ، وينهبون منهم الأموال الطائلة . لذلك كان لكل مملوك من ذوى النفوذ جماعة من البدو يخامر معها ويعتمد عليها ويحميها عند السلطان .

أما الحرافيش أو عامة الناس فى المدينة فأقتصر دورهم على التشنيع على السلطان ونشر النكت ضده . فاذا قام المماليك على مملوك منهم وطاردوه وطردوه خارج القاهرة كبس العامة بيته فنهبوه وخطفوا متاعه وحريمه ، وأحيانا كانوا يهدمون داره وينهبون حتى حجارة الدار ! وعندما نزل الأمير برقوق عن العرش فى ولايته الأولى ، وخرج متخفيا من باب القرافة ، هجم عليه الحرافيش وكادوا يقتلونه لولا أنه عمد الى حيلة ذكية ، فبدر عليهم

الجنيهات الذهبية والقطع الفضية ، فانشغلوا بها عنه ، وبذلك نجا من قتل محقق وقيل إنه نثر عليهم من الجنيهات الذهبية مائة الف ولكن المماليك بالرغم من شجاعتهم الفائقة ، لقوا الهزائم التاريخية في معارك مصيرية . ليس بسبب عدم الكفاءة في الحرب ولكن بسبب تكالبهم على السلطة والخلافات المستمرة بينهم ولقد كاد الملك الناصر فرج ان يوقع الهزيمة بالقائد تيمور لنك عند أبواب دمشق . وفي الليلة نفسها التي بعث فيها تيمور لنك يطلب الصلح من السلطان ، خامر عليه بعض الأمراء وتسحبوا من معسكره تحت جنح الظلام وانطلقوا نحو مصر وقد عزموا على خلع السلطان فلما بلغه نبأ انسحاب المماليك وعودتهم الى مصر . انسحب هو الآخر بجيشه تاركا دمشق تحت رحمة المغول !

وكانت النتيجة احتلال دمشق وجرى عليها ما جرى على بغداد أيام هولاكو فقد احتلوا الجامع الأموي وشربوا الخمر فيه وضربوا الطنبور ولعبوا القمار ! وكانوا يقبضون على الرجل في دمشق ويقولون له : هات ما عندك من المال ، فيقول : ما عندي شيء من المال ، فيضرب ضربا شديد حتى يخرج بنسائه وعياله ، فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينيه . وكانوا يعلقون الرجل من أصبع قدميه في سقف الدار ثم يشعلون النار تحته حتى يموت من ذلك العذاب . ولقد أسر المغول كل أهل دمشق وساقوهم في حبال ثم أحرقوا دمشق . وقد أتى الحريق على جامع أمية وعلى غالب جوامع المدينة حتى أقفرت دمشق من زخرفها ونقوشها . لا ترى فيها دابة تدب أو طائرا يهب ، سوى جثث قد احترقت وصورا في الثرى قد تعثرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبا فـ (إنا لله وإنا إليه راجعون) لعظم هذه المصائب وشناعة هذه النوائب !

وقبل أن يرحل تيمور لنك عن دمشق ، جمعوا له أطفال المدينة ، فكانوا ما بين ابن خمس سنين وشهر وشهرين ، فركب تيمور لنك ، فلما اتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ، ثم قال للعسكر ، سوقوا عليهم بالخيل ، فماتوا أجمعين . ثم نظر لمن حوله وقال : أنا غضب الله في أرضه ، يسلطني على من يشاء من خلقه .

ولكن ، أين كان سلطان مصر بعد انسحابه من دمشق ؟ كان خلف أسوار القلعة يقتل المماليك دفاعا عن عرشه الذي طمعوا فيه ! وما أغرب الحياة !

□ □ □



الفصل السابع

الخيانة يا مسلمين

وهـا هى مصر العظيمة تسقط مجهدة .. فى النهاية بسبب حروب المماليك فى الداخل والخارج ، لقد جفت البقرة الحلوب . وراح السلطان يتلمظ وهو يتلفت حوله عن ضرع فى البقرة لم يجف لبنه بعد ! واكتشف السلطان قنصوه الغورى ان هناك اوقافا المسلمين يمكن الاستيلاء عليها .. ولكن قامت قيامة رجال الدين ضد هذا الاجراء ووقف شيخ الحنفية بقوة ضد السلطان وأغلظ له فى القول . وثار السلطان وأمر بالقبض عليه ، ولكنه اضطر إلى الافراج عنه بعد أيام لكى يقضى على الثورة التى عمت القاهرة . لقد بدأت الثورة داخل حارات المدينة المقفلة ، وفى أسواقها المزدحمة ، ووصلت الى كل ركن من أركان العاصمة . لقد سئم الناس هذا الذل الذى بلا نهاية ، وهذا الهوان الذى بلا حدود ! وقام مطرب شعبى يدعى على أبو رحاب ابن بلد من القاهرة . قام يغنى ضد المماليك وضد السلطان . وانذرته السلطة مرة ، ثم قبضت عليه مرات . وعندما لم يتوقف على ابو رحاب قبض عليه طومان بأى الأول وضربه ضربا مبرحا ، وعراه من ثيابه وشهره فى القاهرة على حماره والمنادى يصيح أمامه (هذا جزاء من يتكلم فيما لايعرف ، ويتدخل فى مالايعنيه) ! لعل على ابورحاب مطرب عصر المماليك هو الأب الشرعى للشاعر الشعبى أحمد فؤاد نجم ، الذى سخر من السلطان واصبحت أيامه سجنا متصلا . ويا ألف حسرة على مصر الحبيبة وصلت فى عهد قنصوه الغورى الى قمة الغنى وغاية السفه

وفى اقصى الشمال لمملكة قنصوه الغورى ، كانت هناك عيون ترقب التفاحة التى فسدت وتوشك على السقوط ، كان قد ولى الحكم فى دولة (الروم) شاب طموح هو السلطان سليم شاه الأول . وقد زحف بجيوشه الفتية نحو حلب . فلما سمع سلطان مصر نبأ الغزو العثمانى نفخ فى النفير . وخرج فى جيش كبير يضم الألوف من الفلاحين والبدو والمماليك . وعندما دخل السلطان حلب أرسل الأمير مغلباى داود أرسكين إلى السلطان العثمانى سليم ليعرف مراده على وجه التحقيق . ولكن رسول السلطان ذهب الى الناحية الأخرى وغاب . وقضى السلطان وقته فى حلب وقد انشغل فكره على رسوله الذى غاب وعسكره الذين دبت الفتنة بينهم ، فثارت الحرب اكثر من مرة بين المماليك الجراكسة وكتائب العربان وجيش الفلاحين . ولكن رسول السلطان قنصوه الغورى ظهر فجأة وهو فى انحس حال ، بزنط أقرع على رأسه . وعلى بدنه ثياب عتيقة ممزقة وقد ركب على اكديش هزيل ، وحكى الرجل - الذى ينم مظهره على الهوان - عن الهول الذى لاقاه عند السلطان سليم كيف حلقوا له لحيته ونتقوا له حاجبيه وأجبروه على حمل مخلفات الخيل فوق رأسه ، وأخيرا ، أطلقه من أسره وقال له: قل لأستاذك يلاقينا فى مرج دابق !

وكانت مرج دابق تبدو كمسرح مهجور عندما دخلها سلطان مصر بجيشه ، فأقام فيها الى يوم الأحد خامس عشر من رجب حين ظهرت جيوش بنى عثمان . فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وعلى كتفه طير ، وعن يمينه أمير المؤمنين . وكان حول السلطان أربعون مصحفا شريفا فى أكياس حرير ، وجماعة من الفقراء خلفاء سيدى أحمد البدوى وسيدى أحمد الرفاعى . وكان قائد الميمنة سيباس بك وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب وعندما بدأ القتال قاتل المماليك قتالا شديدا وكسروا العسكر العثمانلى كسرة مهولة . فهم عساكر الروم بالهرب . وانشغل عساكر المماليك بالسلب والنهب . وتوغل بعضهم داخل الاعداء حتى وصلوا الى وطاق السلطان سليم . ولكن فجأة انهزم خاير بك دون سبب وهرب بعساكره من المعركة . فالتف عسكر العثمانلى حول جيش السلطان قنصوه . وكان خاير بك على اتصال بالسلطان سليم . وقد ولاه اقليم مصر بعد ذلك . وسماه العامة « خاين بك » ! وعندما تحقق قنصوه الغورى من خيانة خاير بك نادى فى عسكره : « يا أغوات هذا وقت المروءة . هذا وقت النجدة » ! ولكن صوته لم يصل الى أحد . وتحول الجيش الى فلول . انسحب المماليك فى البداية . ثم ولى العربان الفرار . ونجا من استطاع الافلات من عسكر الفلاحين .

وسحق الاخرون فلم يعد منهم احد . وعندما ايقن السلطان الغورى من الهزيمة ، هتف فى حنق شديد : « الخيانة يا مسلمين » . ثم اصابه شلل مفاجىء فسقط من فوق حصانه ، وقيل تفتت كبده فتقيا دما . ومات من شدة القهر ! ودخل السلطان سليم حلب ، وأرسل مندوبا عنه ليتسلم قلعة حلب ، واختار رجلا اعرج اعور اقرع « فعد ذلك اهانة لملك مصر . وسبحان الذى بيده الملك ! »

ولكن اذا كانت حلب قد سقطت ، واذا كانت الشام قد سقطت ، واذا كان عسكر ابن عثمان قد وصلت الى غزة ، فان القاهرة لم تزل صامدة لم تستسلم .. اختار المماليك طومان باى الثانى سلطانا على مصر ، وحددوا مهمته « وقف زحف ابن عثمان والقضاء عليه » !

ولكن مصر كانت قد سقطت قبل ذلك ، أسقطها المماليك انفسهم وقتلوا روحها ، ولم يستطع طومان باى ان يصنع شيئا اكثر من انه دخل عدة معارك رهيبة عند قليوب وفى الريدانية وفى بر « انبابة » ولكن الهزيمة لحقت بجيشه فى النهاية ، ودخل سليم الأول مدينة القاهرة وأباحها لجنوده . وظلت فى شوارعها جثث عشرة ألاف قتيل من أهلها لم يتيسر دفنها ! ودخلت مصر فى غيبوبة طويلة .

أما طومان باى فقد هرب لدى بعض العربان ، فسلموه للسلطان سليم شاه وعندما التقى الرجلان ظل السلطان طومان باى رافع الرأس مصرا على انه سلطان مصر ولا احد سواه ! وكان جزاؤه الشنق على باب زويلة حيث اعتاد السلاطين شنق اللصوص والشطار . ولكن التى تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باى ، ولكنها كانت فى الحقيقة جثة مصر .

ولقد ماتت قرونا طويلة قبل ان يكتب لها البعث من جديد !

وجاء السلطان العثمانلى ودخلت مصر فى سرداب التاريخ ، وتحولت من سلطنة الى ولاية ، وخيم عليها الظلام واصابها الضمور ! واذا كان السلطان العثمانلى قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى على المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء ان تزيوا بزى العثمانلى ورطنوا بلسانه ، واشتغلوا تحت رايته !

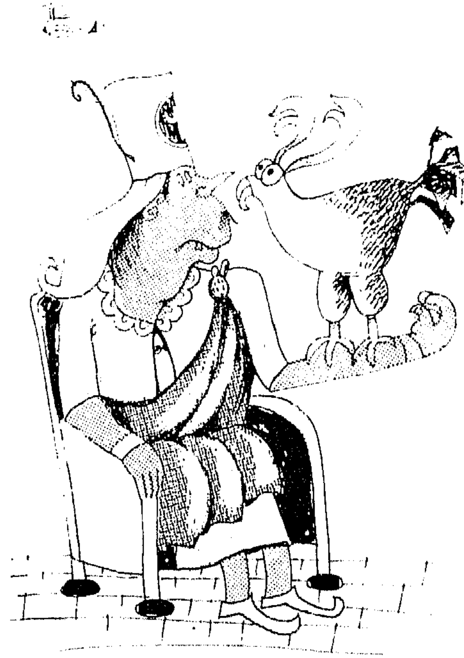
ولم يمض وقت طويل حتى هبوا من جديد يناصبون السلطان العداء ويخرجون على طاعته . وكان السلطان فى أغلب الأحيان يبعث بتجريدة لتأديب العصاة ، فيفر هؤلاء الى جهات الصعيد والوجه البحرى ، ويقيمون دويلات صغيرة وحكومات مستقلة ، وسيلقى الفلاحون العنت والارهاق وسيذوقون الأمرين ، وسيضطرون الى دفع الضرائب مرتين . مرة

للحكومة المركزية ومرة للحكومة المتمردة على سلطة الدولة . وستشهد مصر هجرات داخلية تتشتت منها العائلات فى أنحاء مصر هربا من جور الحكام وعسف المماليك . وسيتحول الأزهر والى فترة طويلة من الزمان من بؤرة للثورة الى وكر للجريمة . وسيطلق المماليك على انفسهم لقبا جديدا هو المماليك المصرلية ، اى الذين ولدوا فى مصر ، فهم مماليك صحيح ولكنهم مصريون أيضا ، وسيتحدون السلطان العثمانلى باعتبارهم أصحاب البلاد الأصليين . وستعرف مصر نوعا من انواع القتل لم يكن لها به عهد من قبل ، هو الموت على الخازوق ! وكان لدى العثمانيين جلادون مهرة يعرفون كيف يدقون الخازوق فى بطن الرجل .. من دبره الى فمه .. دون ان يخترق مكانا قاتلا بحيث يبقى المخزوق جالسا على الخازوق عدة ايام وهو بين الحياة والموت . يعانى أشد انواع العذاب ، دون ان تمتد له يد بكوب ماء او كسرة خبز ، أو حتى كلمة طيبة ، وعرفت أيضا عقوبة النفى من مصر الى الاستانة ، وكم من المماليك العصاة لقوا حتفهم فى المنفى على يد زبانية السلطان ، وكان من حق هؤلاء وضع اليد على املاك المماليك المغدورين وحريمهم ! وقويت شوكة قبائل العرب الرحل فى العهد العثمانلى ، وبرزت على الساحة المصرية كقوة سياسية يعمل لها الف حساب ، واصبحت من الجرأة بحيث كانت لاتتردد فى الهجوم على العاصمة نفسها أو قطع طريق القوافل أو نهب بعثة الحج ! واشتهر من هؤلاء أبوالشوارب شيخ عرب شلقان . وهو نفسه الذى انحدرت منه عائلة الشواربى الشهيرة ، والتى اطلق اسمها على الشارع الشهير فى القاهرة ، أول شارع رائد فى سياسة الانفتاح والانشكاح التى اصبحت سياسة مصر الرسمية بعد ذلك !

وكان السلطان العثمانلى اذا رغب فى اغلاق ملف مصر . سلمها للمماليك يحكمونها باسمه شرط ان يدفعوا الخراج المطلوب والجزية المتفق عليها ، وفى هذه الفترات كانت مصر تعانى الافلاس وتصل الى حافة الخراب . لأن العثمانلى كان يطلب مبلغا كبيرا ، وكان المماليك يفرضون ضعف المبلغ المطلوب . ليعطوا للسلطان وليأخذوا لأنفسهم . ولذلك ستشهد مصر مجاعات متتالية ، وسيحصدها الطاعون اكثر من مرة . وسينهبها العثمانلى والمملوك وقبائل البدو وعساكر الانكشارية ، وسيتفشى فيها الحشيش واللواط . وستغرى حتى ملك النوبة بالهجوم عليها .. وستنطفىء شعلة مصر المقدسة . وستخمد نارها . ولن تجد فى مصر طوال العهد العثمانلى أديبا له وزن . وسيصبح الأدب مهنة الجزارين والبقالين والزياتين

والخياطين ، وستسمع عن الأديب الجزار والأديب الزيات والأديب الخياط ، وسيقول احد هؤلاء حكمة عندما سألوه ، وكان يعمل جزارا ثم هجر الجزارة واشتغل بالأدب ، سألوه عن الفرق بين الجزارة والأدب فأجاب ساخرا : عندما كنت جزارا كانت تمشى ورائى الكلاب ، وعندما إصبحت أديبا سرت امشى وراء الكلاب !! فنان واحد سيلمع وسط هذا الظلام الدامس ، أديب ساخر من الصعيد اسمه ابن سدون المصرى جاء من منفلوط ليدرس بالأزهر ، يصدر كتابا غاية فى السخرية وقمة فى الابداع . كتابا اسمه « رسائل ابن سدون » . ولكن أحدا لن يلتفت إليه فى زمانه ، ولكن التاريخ سينصفه بعد ذلك بزمان طويل !!

□ □ □



الفصل الثامن

طبول الثورة

وجاء عابدى باشا وتولى ولاية مصر .
وفى يوم توليه أرعدت السماء وأمطرت مطرا غزيرا وكسفت الشمس . وتشاءم الناس ، وكانوا على حق . وبعد توليه بأيام زحف القبالى الى بنى سويف ، فصعد المشايخ وعلى رأسهم الشيخ العروسى الى الباشا وكلموه فى ذلك . فأرسل مكتوبا مع الططرى الى الأمراء القبالى « انكم طلبتم الصلح مرارا ، واجبناكم بما طلبتم واعطيناكم ما سألتم ، ثم بلغنا أنكم رجعتم وزحفتم الى بنى سويف ، فما عرفنا أى شيء عن هذه الحال ، والقصد انكم تعرفونا عن قصدكم وكيفية حضوركم ، ان كنتم نقضتم الصلح والا فلترجعوا الى ما حددناه لكم مما وقع عليه لاتفاق » ومر اسبوع على خطاب الباشا الى الأمراء القبالى ، ثم تلقى الرد ان كان صلحا فليكن كاملا ونقعد معكم بالبلد عند عيالنا ، ونصير كلنا اخوة ، ونقيم ثأرنا من ثاركم ودمنا فى دمكم وعفا الله عما سلف ، وان لم ترضوا بذلك فلتستعدوا للنزال ، انها الحرب اذن ولكن الباشا لايريد الحرب ، ولا يقوى عليها ، والمماليك لاتستطيع مهاجمة القاهرة ولاتقدر عليها ، وحصل وقف حال وضيق فى المعاش ، وانقطاع للطرق وعدم امن ووقوف العربان ، ومنع السبل وتعطيل أسباب وحسر فى الأسفار برا وبحرا ، ولجأ العامة والتجار للمشايخ ووسطوهم لدى الباشا ليعمل على انهاء هذه الحالة ـ حالة اللاسلم واللاحرب ـ فذهب المشايخ وصعدوا الى القلعة

وتكلد الشيخ العروسى : لماذا لاتخرجون للحرب ؟ فقد ضاق الحال بالناس . ولايقدر احد من الرعايا ان يذهب الى بحر النيل . وقربة الماء بخمسة عشر نصف فضة . وحضرة الباشا منشغل ببناء حيطان ومتاريس وهذه ليست طريقة المصريين فى الحرب وانما طريقتهم المصادمة وانحصار الحرب فى ساعة اما غالب أو مغلوب . ووعد الباشا بأنه سيخرج للحرب فى القريب . ولكنه لم يخرج من القلعة قط . وظلت الأحوال على ماهى عليه خراب وغلاء وانقطاع سبل . وفجاة ارسل الباشا فى طلب عرب الهنادى وعرب البحيرة فحضروا بجمعهم واخلاطهم وانتشروا فى الجهة الغربية من رشيد الى الجيزة ينهبون البلاد ويأكلون الزرع ويضربون المراكب فى البحر ويقتلون الناس . حتى قتلوا فى يوم واحد فى النجيلة ثلاثمائة انسان . ورجف الناس وغلقوا أبواب البيوت على عيالهم واصبح الرجل لا يامن على الخروج من باب النصر ولم يتوقف زحف العربان ، فنهبوا اسواق امبابة وعروا التجار واستولوا على ما معهم من نقود وبضائع . وبينما الناس غارقة فى الهجوم حتى الآذان ، اذا بالأمير حمزة كاشف يلقى القبض على رجل رومى يبيع الجواهر وعذبه آياما وقلع عينيه وأسنانه وقطع انفه وشفتيه وأطرافه حتى مات . واشيع أن سبب ذلك هو وقوع علاقة غرامية بين الجواهرجى الرومى وزوجة حمزة كاشف وقيل انه استأذن الوالى فى فعلته فأذن له . ثم حضر الى القاهرة الف عسكرى رومى وعليهم كبير يدعى اسماعيل باشا ، وقدم الباشا للوالى ألف قرش من جناب السلطان لمساعدة المشايخ والمجاورين ليقرأوا البخارى للسلطان ويدعوا له بالنصر . ولكن هدية السلطان لم تكن كافية فزادها الى أربعة الاف قرش . وبالرغم من قراءة البخارى ، فقد زادت الكوارث والمحن والطاعون والكروب المختلفة ثم انشغلت القاهرة عن همومها برجل هندى مقعد يجلس على مقعد من الفضة ، وكان قد حضر من استانبول بعد ما زار السلطان واهداه هدية قيمة ، من بينها طائران يتكلمان اللغة الهندية ، وكان مع الرجل الهندى فرمان من السلطان يخول الاستعانة بمن يشاء من العساكر فى اقاليم مصر مقابل أجر ، ولكن الناس امتنعوا عن ذلك وكل من دخل فيهم وسموه بعلامة فى جبهته لا تزول . ثم دخل القاهرة ذات صباح رجل من الحجاج يكاد يكون عاريا تماما . وأخبر الناس أن العرب قطعوا طريق الحج ونهبوا قافلة الحجاج وفيها أموال كثيرة للغاية خاصة ستة الآف جمل ما بين قماش وبهار وبن وبضائع ، واسروا النساء وفسقوا فيهن ثم عروهن وتركوهن عرايا فى الصحراء !

وتدهورت الاحوال اكثر . وازدادت القاهرة خرابا حين وقعت الواقعة فى بولاق بين بعض المغاربة والعساكر القليونجية . وسبب ذلك ان المغاربة نهوا العساكر عن شرب الخمر نهارا جهارا فى رمضان فرمى عليهم العسكر بالبارود . فنط المغاربة خلفهم فى المراكب واشتبكوا معهم ، ومسكوا من مسكود . وذبحوا من ذبحوه ورموهم فى البحر ، وقطعوا أحبال المراكب ورموا صواريها . وحصلت ضجة فى بولاق تلك الليلة وأغلقوا الدكاكين ، فلما بلغ الوالى ذلك اغتاظ وأرسل الى المغاربة يأمرهم بالانتقال من بولاق ، فانتقلوا الى القاهرة وسكنوا فى الخانات . فلما كان ثانى يوم ، نزل الأغا والوالى وناديا فى الأسواق على المغاربة بالخروج من المدينة الى جهة العادلية . ولكن المغاربة رفضوا الأمر ، واشتروا سلاحا وعزموا على القتال . فلما تحقق الوالى الضعيف من عزمهم نادى عليهم بالامان وسكنت الفتنة .

ولكن القاهرة المضطربة لم يغمض لها جفن ! ورحل عابدى باشا عن مصر بعد ما ذاقت الويلات على يديه . وتولى منصب الوالى اسماعيل كتخدا حسن باشا فعقد هدنة مع الأمراء القبالى ، وتنازل لهم عن حكم الصعيد من منفلوط إلى أسوان ، واستقر إبراهيم بك فى منفلوط وعمر فيها دارا . وصعد مراد بك إلى الصعيد الأعلى ، وتفرق مماليكهم فى الجهات وسلكت الطرق ووصلت إلى ساحل بولاق المراكب وعليها الغلال ، وعادت الأحوال الى سابق عهدها فى القاهرة . وكانت الهدنة بين الوالى والمماليك وبالا على المصريين فقد تفرغ الوالى لحلب مصر بكل طريق وأى طريق . ووجه على الناس قباح المماليك وأغلظ الملتزمين . وراحوا يكبسون بيوت الناس وبأيديهم البنادق ، ويسمعونهم قبيح القول ، ويتعرضون للنساء . وتولى مصطفى كاشف المرابط أمر قلعة طره ، وراح يستولى على كل سفينة صاعدة إلى قبلى أو هابطة إلى القاهرة ولا يفرج عنها الا بمال . وانشغل الوالى بشراء المماليك وأكثر منهم ، واسكنهم فى الجيزة وبولاق ومصر عتيقة ، وأغدق عليهم الرواتب والجامكيات . وكانوا خليطا من الرعاع بأشكالهم المختلفة وطباعهم المنحرفة . وعدم أديانهم ، وانعكاس أوضاعهم ، واستعملهم من أول وهلة فى الفروسية ولم يدربهم فى آداب ولا معرفة دين ولا كتاب . ثم جمع عشرات الصناع المهرة وعكف على صنع عدة سروج للسلطان بعبايات مزركشة . وهى مع السرج والقصعة والقربوجى مرصعة بالجواهر والبروق والذهب والركابات واللجامات والبلامات والشماريخ والسلاسل كلها من الذهب البندقى المكسر ، والرأس والرشمات

كلها من الحرير المصنوع بالمخيش وفيها تعاليق المرجان والمعادن ، صناعة بديعة وكلفة ثمينة ! واشترى كثيرا من الأوانى والقدور الصينى الاسكى معدن وملأها بانواع الشربات المصنوع من السكر المكرر . كشراب البنفسج والورد والحماض والصندل المطيب بالمسك والعنبر وماء الورد ، والمربات الهندية ، مثل مربة القرنفل ومربة جوز الهند والبسباسة والزنجبيل والطابلى . وأرسل ذلك الى السلطان مع الخزينة ومعها عدة خيول من الجياد وأقمشة هندية وعود وعنبر وظرائف وكميات من الأرز واللبن ، وماء الورد المكرر وغير ذلك . ولم يسبق لأحد فى ما تقدم من أمراء مصر أن أرسل مثل ذلك ولم نسمع به ولم نره فى تاريخ ! ولكن فى عهد هذا الباشا العاكف على استرضاء السلطان بالعنبر وماء الورد وقعت حادثة فريدة ، سيكون لها اثر بليغ فى المستقبل ، وان كانت لم تلفت نظر الباشا ولا المماليك والأعوان ومروا عليها جميعا مرور الكرام . فقد حدث ان تعددت المظالم فى القاهرة على يد ناظر الحسبة ، وقام احمد أغا - وهو اسم ناظر الحسبة - بالتعدى على أهل الحسينية . والقاء القبض على عدد منهم وكبس بعض بيوت الحى ونهبها ! ثم أرسل أعوانه للقبض على أحمد سالم الجزار شيخ البيومية فثار الناس على أتباع الأغا وانضم اليهم نفر كثير من أهل الجهات المجاورة وهتفوا بسقوط الوالى والأغا وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول وقفلوا أبواب الجامع وأبطلوا الدروس ، وأرسلوا عريضة للباشا يطلبون فيها عزل الأغا . ولكن الباشا رفض طلب الثائرين وهددهم بأقسى العقاب . ولكن ذلك لم يردعهم ، وازدادت ثورتهم . وكثرت جموعهم وهددوا بالزحف الى القلعة . وصار أحمد أغا يركب بجماعة من الأرناؤوط ويشق القاهرة ليغيظ العامة . ولكن الأحوال توترت أكثر وانضم الألوف الى الثوار . وتوقفت الحال فى القاهرة تماما . وبدأ الناس يشترون السلاح . ومشوا طوائف يأمرون التجار بإغلاق الدكاكين ، واحتلوا مداخل القاهرة ، وأغلقوا أبوابها الكبرى ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة أسبوع كامل توقفت فيه حركة البيع والشراء ، وقل المعروض من الخبز فى الأسواق . فلم يجد الباشا بدا من عزل الأغا ، وجاء الأغا الجديد بنفسه الى الجامع الأزهر واسترضى الثائرين ووعدهم بإصلاح الحال . وهدأت الفتنة فى القاهرة ، ولكنها خلفت فى الساحة قوة جديدة لم يكن لها حساب من قبل وسيكون لها ألف حساب فى المستقبل . قوة هى صاحبة المصلحة الأولى والأخيرة ، وهى صاحبة الأرض والبلاد ، قوة اسمها الشعب !

وكان الباشا قد انتهى من عمارة قصره الجديد ونقل اليه أعمدة ضخمة من المساجد القديمة ، وغرس فى جانبه بستانا عظيما جلب له أشجارا من الهند واليمن ، وتمورا من العراق . وظن أن الدنيا قد دانت له ، ولكنه لم يكد يستقر فى قصره الجديد حتى جاء مرسوم من السلطان بعزله عن ولاية مصر وتعيين والى المورة عزت باشا مكانه . نزل الباشا من القلعة الى بولاق ، وأراد السفر فى يومه . ولكن الأمراء منعوه من ذلك ، فلما أغلظ لهم القول طردوا البحارة من المراكب ومنعوه من الرحيل حتى يتم حسابه وتسديد دينه الذى فى عنقه . وقال له أحد المماليك ، « عيب يقول الناس الباشا هرب ومعه أموال مصر » ! وظلت المراكب راسية بمتاعه وحريمه على ساحل بولاق حتى حضر الوالى الجديد وتمت محاسبته . فطلع فى ذمته مائتا كيس دفع بعضها صكوكا وبعضها نقدا وسدد بعضها من متاعه . ولكن الباشا الجديد اكتشف خطأ فى الحساب فأمر بإيقاف مركب الباشا السابق فى عرض النيل ، وبالفعل أوقفوه وحصلوا منه على الباقى فى ذمته ثم سمحوا له بالسفر . وقد أمر الباشا الجديد بعزل كل الذين عينهم سلفه . واستخدم اتباعه بدلا عنهم .

ثم جاء الطاعون وتساقط الناس بالمئات فى الشوارع ..

□ □ □



الفصل التاسع

وجاء بونابرت

ولقد كانت خطة الباب العالى شق معسكر المماليك الى معسكرين . ومملكة الحرب . أى ان تقوم الحرب وتستمر ، وبشرط ان يكون طرفاها مماليك ومماليك ، وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لكى يستتب الأمر للسلطان ،ولكيلا لاتعود مصر لترفع رأسها أو تجرد سلاحها من جديد ! والأغرب من ذلك أن المماليك بلعوا الطعم ، وبدأت الحرب ولم تهدأ . ووقف الباب العالى يغذى النار المشتعلة بالوقود ، وينفخ فيها حتى لاتخمد ، واقتصر دور الباب العالى على نصرة الضعيف على القوى حتى يضعف ، ومساندة الضعيف حتى يقوى ! ولذلك سيعلن الباب العالى مباركته لابراهيم بك ومراد بك لحظة دخولهما القاهرة ، وسيطارد حليف الأمس ، وسيكبس دوره ويستصفى أمواله ويسبى حريمه ، وسيجبره على حياة المنفى والهوان ، ولم يكن هذا المصير الرهيب الذى انتهى اليه المماليك بسبب حذق الباب العالى أو تمرس رجال الدولة فى السياسة وأمور الحكم ، ولكن كان بسبب اخر هو سقوط المماليك أخلاقيا وانحلالهم الذى بلا نهاية وعدم تمسكهم بمبدأ أو عهد أو هدف ، الا التهليب بأقصى طاقة وغرف الأموال بلا حساب . وركوب الدنيا بلا غاية ! ولقد كان محمد أغا البارودى خير نموذج للماليك . وكان مملوكا لابراهيم كتخدا القازدغلى ، اصطفاه وجعله خازنداره وزوجه من ابنته فلما مات سيده طلق ابنته وتزوج من أرملة استاذه . وانضوى تحت جناح حسن كتخدا الجربان وقربه اليه وخلع عليه الخلع السنية . وأنابه فى تدبير شئون الكتخدائية .

فعند ذلك اشتهر ذكره ونما أمره واتسع حاله ، وانفتح بيته وقصدته الناس وتردد اليه الاعيان . ووقف فى بابه الحجاج واتخذ له ندماء من أولاد البلد اللطفاء يقضى معهم حصة من الليل ينادمونه ويسامرونه . وماتت زوجته فزوجه مراد بك إحدى عشيقاته ، وصار بذلك صهرا لمراد بك فازداد شهرة ومكانة . فلما وصل حسن باشا واضطر مراد بك الى الهرب من القاهرة الى الصعيد ، انضم محمد اغا البارودى الى حسن باشا واسماعيل بك أعدى أعداء مراد بك والد خصومه ! وعينه اسماعيل بك أمينا للمخازن . فعظم شأنه وارتفع قدره وطار صيته فى الاقاليم المصرية ، وكثر الازدحام فى بابه ، وجبيت اليه الأموال ، وصار الايراد اليه والمصرف من يده .. ثم تزوج ابنة سيده الجديد . وحضر حفل زفافه الوالى والأمراء والأعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا العظيمة . ودفع النقوط جميع التجار والنصارى والكتاب القبط ومشايخ البلاد ذهبا عينيا فجمع من وراء ذلك مالا له صورة ! وسار فى زفة العروس موكب مهيب اشترك فيه جميع أرباب الحرف والصنائع من كل طائفة ، وذلك خلاف الملاعيب والبهلوانات والرقاصين والجنك والأغاوات والحريم والملازمين والسعاة والجاويشية . واستقلت العروس عربة من صناعة والأفرنج . وكانت زفة غريبة الوضع لم يسبق لها مثيل » ! وكان يقبل الرشوة ، واذا احب انسانا قضى له أشغاله كائنة ما كانت من غير مقابل . ولما مات اسماعيل بك وتولى الامارة عثمان بك طبل ، استوزره ايضا وسلمه قيادة فى جميع أموره ، وصار هو الذى يحكم مصر ، وعثمان طبل لا يدرى ما يدور حوله .

ولذلك سيعاود البارودى اتصاله بصهره ومخدومه القديم مراد بك ، وسيتبادل معه الرسائل ، وسيمهد له الطريق للعودة الى القاهرة على جثة مخدومه الجديد عثمان طبل . وبالفعل ، لولا خدمات البارودى ومساعدته لما استطاع مراد بك ان يرى القاهرة فى حياته . لقد مهد له الطريق وسهل له الأمر . حتى تمكن أخيرا من دخول القاهرة وطرد عثمان طبل ، بعدما هدموا داره واغتصبوا حريمه واستصفوا امواله . ولكن البارودى لم يتسع أمامه الوقت لممارسة لعبته المفضلة ، خيانة اسياده القدامى والركوع على اقدام اسياده الجدد . ولم يجد الفرصة ليأكل على المائدة الجديدة . فقد اختطفه الموت فجأة قبل ان يدخل مراد بك القاهرة بليلة واحدة !

وأيا كانت نهاية البارودى . فالواقع ان البارودى لم يكن نشازا بين صنف المماليك . لقد كان نموذجا للمملوك فى ذلك العصر المنحط . وكان

البارودى هو كل المماليك . وكان كل المماليك بارودية . ولذلك كان محمد الألفى هو صحوة الموت بالنسبة إليهم . وكانت مذبحة القلعة مجرد تحصيل حاصل . فقد ذبحوا انفسهم بأنفسهم من قبل . وانتهت أيام المماليك العظيمة المجيدة التى مازالت اصداء رنينها تتردد فى سمع الزمان حتى اليوم . ولم يعد من مماليك الأمس الا حفنة من الأرزقية والحرامية ، وفقدوا كل اسلحة العصر الذهبى . ولم يعد فى ايديهم الا سلاح الغدر !

وهكذا فوجىء المماليك وهم غارقون لآذانهم فى معارك جانبية وحروب داخلية ، بنزول جيش بونابرت على شاطىء الاسكندرية كان فتى الثورة الفرنسية الذى دحرج تيجان اوروبا فى الوحل وداس عليها بالاقدام قد تفتحت شهيته للشرق ، وكان عليه ان يسلك الطريق نفسه الذى سلكه الاسكندر الأكبر من قبل ، وكانت مصر هى البوابة وهى الجسر الى عالم الشرق الساحر الغامض المتخم بالخرافة والكنوز !

ولم يشعر احد فى الاسكندرية بجيش بونابرت الا بعدما احاط الجيش بالمدينة . ولم تستمر طويلا مقاومة الاسكندرية ثم انتهت الحرب بتجريد الأهالى من السلاح ، واعطاء الأمان لمن يريده ثم مفاوضة المشايخ على ترتيب البيت من الداخل وتنظيم شئونه ! ولم تسمع القاهرة بنبأ الغزو الا بعد أيام ، وشمخ مراد بك بأنفه احتقارا لشأن العساكر الفرنساوية وتمادى ابراهيم بك فاقسم بالطلاق انه سيدوس بقدميه أى عساكر اجنبية تجرؤ على دخول مصر ! ثم راحوا يصادرون أموال الناس ، ويستولون على ما يحتاجون اليه بدون ثمن ، ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز بخيامه ووطاقه وأخذ معه كميات من البارود والمدافع وسار مع العسكر الخيالة ، وأغلبهم من الأروام والمغاربة . الى الاسكندرية وخلال خروج جيش مراد بك خلت الأسواق فى القاهرة وكثر الهرج بين الناس وانقطعت الطرق ، واخذت الحرامية فى كل ليلة تكبس على اطراف البلد ، ولم يعد احد من سكان مصر يشاهد فى الطريق بعد المغرب !

وحدثت رجة عظيمة فى القاهرة حين وردت الأخبار بأن الفرنسيين وصلوا الى دمنهور ورشيد ، ووقع فى ايدى السلطان منشور اصدرته القيادة الفرنسية . « بسم الله الرحمن الرحيم » لا إله إلا الله .لا ولد له ولاشريك له فى ملكه ، من طرف الفرنساوية المبنى على الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون بالديار المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها ،

فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، واضرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمر المماليك المجلوبين من بلاد الاباترة لايوجد فى كرة الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم ، يا أيها المصريين ، لقد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وأما هؤلاء المماليك فما الذى يميزهم من غيرهم حتى يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء احسن فيها ، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل ورحيم ، وبعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس احد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء الفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك . طوبى للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب ، لكن الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ، ولا يبقى منهم أثر » .

وكان هذا هو بيان الجنرال بونابرت الى شعب مصر . ولقد كان بيانا للتمويه والخداع ، أو هكذا أراده عبقرى قادة زمانه بونابرت . غير انه كان بالنسبة لمصر هو أول الطريق نحو البعث الجديد . وكانت أول صرخة فتحت عيون المصريين على حقائق بدبهية . أن بلادهم كانت عظيمة وهكذا ايضا ينبغى أن تكون . ان المماليك مغتصبو حق الأمة وان المصريين أحق بحكم مصر من هؤلاء المجلوبين من بلاد الأباترة . والجركس ! وان المدن كانت عامرة والأموال كانت وافرة ، وما أزال هذا كله الا الظلم !

نصيحة قيلت لشعب مصر ما أحوج شعب مصر اليها فى هذا العصر الذى عاد فيه المماليك فى غفلة من الزمان ليجثموا على صدر مصر !

ولم يثبت المماليك أمام نابليون بونابرت .. وانهزم مراد بك بعد مناوشة بسيطة ، وولى هاربا ، ولكن سرعان ما تجددت المعركة عند امبابة على

الضفة الغربية من نهر النيل فى مواجهة القاهرة .. وبعد وقت قصير من نشوب المعركة فر مراد بك وابراهيم بك ومماليكها تاركين المماليك الصعاليك يواجهون مصيرهم ، واضطر هؤلاء الى ارتداء الزعابيط ، زى الفلاحين ، واندسوا بين الناس فى القاهرة ، وأغلبهم هاموا على وجوههم فى أرجاء الريف .

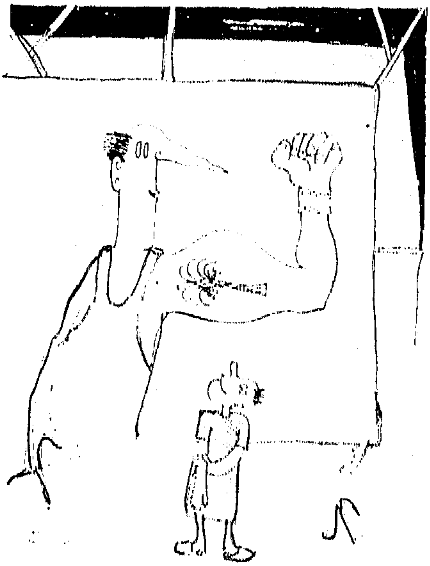
وكان يوما حالك السواد فى تاريخ القاهرة ، راجت إشاعة فى المدينة بان الهدف من الغزو الفرنسى هو إحراق العاصمة وذبح المسلمين . واندفع اثرياء الناس الى الهروب خارج القاهرة حاملين معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه . وبيع الحمار الهزيل بعشرين دينارا . وبلغ بهم الخوف الى الحد الذى القى بعضهم نفسه فى النيل سابحا ضد التيار هاربا الى حلوان . وخرجت الناس بملابس النوم . وضل اطفال عديدون خلال الزحام فلم يعثر لهم على أثر : ولم يبق فى القاهرة الا فقراء القوم ، وهؤلاء سلموا أمرهم لله ، وخضعوا لتصاريف القضاء والقدر ! وشحت الأقوات فى الأسواق وغلا سعرها ، وانقطعت الطرق ، وكبس اللصوص اطراف المدينة ، وهاجمت قبائل البدو فلول جيش مراد بك عند قرية ترسا فى الجيزة وأشبعوهم قتلا وتذبيحا واستولوا على بركهم وقماشهم وأسلحتهم وشلحوهم من ملابسهم ، ودخل القاهرة عدد من الناس فى زفة هائلة . وقيل انهم كانوا أسرى فى جزيرة مالطة ، وقد أطلقهم نابليون من سجنهم . لأنه مسلم ويحب المسلمين ويكره اعداء الله . وراحوا يتحدثون فى المدينة عن حسن اسلام نابليون وشديد تقواه !!

وأخيرا ، دخل جيش نابليون القاهرة « فى حسن ترتيب وجميل نظام . وقد رفعوا الرايات ودقوا الطبول واطلقوا الشنك والقنابر . ونبهوا على جميع الأهالى بالتبليغ عن المماليك الهاربين . وأنذروا كل من يخفى مملوكا باشد أنواع العذاب » . وعادت الحياة الطبيعية الى القاهرة بالتدريج . وأخذ الهاربون يعودون الى المدينة التى هجروها خوفا من عسكر الفرنسيس ، وفتحت الأسواق وامتلأت الحواصل بالغلال . وجاء الفلاحون الى القاهرة عبر النهر يبيعون الجبن والفواكه والدجاج . وذهب المشايخ وقابلوا « جناب صارى عسكر » وخرجوا من عنده وهم فى غاية من السرور والانشراح ! واصدر الفرنسيون فرمانات بابطال كل النظم المعمول بها فى البلاد . وابطلوا المظالم والفرد ورقموا البيوت والحارات . وأجبروا السكان على تسجيل المواليد والموتى . ورسموا بتعليق قنديل امام كل بيت . وفرضوا على السكان كنس الأرض ورشها أمام دورهم . واصدروا

مطبوعة بلسانهم وسموها الغازينة » . وانتشر العسكر الفرنساوية في العصارى على شواطىء النيل وحول بركة الأزبكية وتضاعف عدد القحاب في هذه الأماكن ، وتردد عليها أصحاب الملاعيب ، وانشئت الحانات والخانات لتدخين الحشيش ، وانقطعت أخبار المماليك ، وتجرأ الناس على من تبقى منهم في المدينة . وصار المملوك يخشى الفلاح ويتودد لابن البلد ، وسبحان مغير الأحوال !

واطمأن نابليون واستقر ، فقد بدأ الخطوة الأولى على طريق حلمه الكبير !

□ □ □



الفصل العاشر

الأزقة والأبطال

ولكن الذى يلفت النظر فى أول ثورة شعبية فى تاريخ مصر المعاصر هو ما جاء فى وصف الجبرتى بأن الذين دبروها وأشعلوها هم « حشرات الحسينية وأوباش الناس »! ولكن « العلماء » الافاضل على حد وصفه ذهبوا الى صارى عسكر واعتذروا اليه فقبل عذرهم ، ورفع الرمى عنهم . « أما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين حتى خانهم المقصود وفرغ منهم البارود » .

انها ثورة شعبية بكل معنى الكلمة . دبرها واشعلها أولاد البلد وخانها بعض المثقفين وكان يطلق عليهم العلماء ، وهم الذين هتفوا لحظة وقوع القنابل على رءوسهم ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف . ثم ذهبوا الى صارى عسكر واعتذروا له فقبل اعتذارهم ورفع الرمى عنهم . انه موقف يتكرر دائما على مر التاريخ الحديث انه موقف المشايخ الذين زاروا الأعتاب الملكية فى وقت كانت فيه القاهرة تشتعل بالثورة ضد الملك وبطانته وأعلنوا اكتشافهم المثير بأن الملك فاروق من أحفاد النبى محمد !

ولكن ليس هذا على أى حال هو موقف المثقفين جميعا . ولكنه موقف بعض الانتهازيين والأرزقية وعملاء السلطة والذين يتاجرون بشرف الكلمة فى سوق البغاء ! فحتى ثورة القاهرة الأولى قادها « بعض المنقسمين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر انه فى القبضة مأسور » ! كما قادها السيد بدر . وهو تاجر مصرى كان من وجوه الناس فى القاهرة . وقد تعقبته السلطة بعد إخماد الثورة واتهمته بأنه كان ضالعا مع المماليك ويعمل لحسابهم . ولكن السيد بدر فر تحت جنح الليل إلى الشام فنهب العسكر الفرنساوية داره ومتجره . ولم يقدر للسيد بدر أن يرى القاهرة بعد ذلك . فقد مات فى المنفى ودفن فى مقابر مجهولة ! أما بعض السادة العلماء الأفاضل فقد اصدروا بيانا للأمة « نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة نعوذ بالله من الفتن . ما ظهر منها وما بطن ونبرا الى الله من الساعين فى الأرض بالفساد . نعرف أهل مصر المحروسة أن الجعيدية واشرار الناس هم الذين حركوا الشرور بين الرعية والعسكر المسلمين ونهبت بعض البيوت . ولكن حصلت الطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين . ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر . فعليكم الا تحركوا الفتن والا تطيعوا أمر المفسدين . ولاتسمعوا كلام المنافقين . ولاتتبعوا الاشرار ولا تكونوا من المفسدين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب من أجل ان تحافظوا على أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم ودينكم . فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى الملك لمن يشاء ويحكم بما يريد .

ونخبركم أن كل من تسبب فى هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد . ونصيحتنا لكم الا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . وانشغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم . وادفعوا الخراج الذى عليكم . الدين النصيحة والسلام » . وكانت هذه ضربة خنجر فى ظهر ثوار مصر . والدين النصيحة ! هكذا كان فى الماضى عندما كان نصيحة للحياة وللحرية والكرامة والموت فى سبيل الله . ولكنه أصبح فى زمن مشايخ فرنسا نصيحة للذل والرق وطاعة المحتل الغاصب . ولا إله إلا الله ! وعلى ذكر المثقفين الأرزقية والمثقفين الأبطال . لابد لنا من وقفة لنلقى نظرة على التاريخ المكتوب . للشيخ عبدالرحمن الجبرتى . لقد مر المؤرخ الذى يحتل الصدارة عند بعض المثقفين على الأبطال مرور الكرام وسبهم ولعن سنسفيل جدودهم . ووصفهم بأنهم بعض المنقسمين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يفكر أنه فى القبضة مأسور .

ولكن من هم هؤلاء الثوار الأبطال الذين تجاهلهم المؤرخ ومر عليهم مرور الكرام ؟ من هم ؟ وماذا فعلوا ؟ وكيف ذهبوا الى رحاب الله فى صحبة شهداء عين جالوت ومرج دابق ؟ احدهم هو العالم الصالح الفاتح الشيخ عبدالوهاب الشبراوى الشافعى الأزهرى وكان حسن الانقاء سلس التقرير ، جيد المحافظة ، مقبلا على شانه ، ولم يزل ملازما على حالته حتى اتهم فى اثارة الفتنة وقتل فى القلعة شهيدا بيد الفرنسيس . ولم يعرف له قبر !

ومنهم ايضا الامام العمدة الفقيه العلامة المحقق الفهامة المتمكن عين اعيان الفضلاء الأزهرية الشيخ أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد البيلى . وكان فيه انصاف زائد وتؤدة وحكمة ومروءة . وتوجه الى الحق ولديه اسرار ومعارف وقواعد وعلم . وقد ولى مشيخة رواق الصعايدة ، وله مؤلفات عديدة ومفيدة منها « مسائل كل صلاة بطلت على الامام » . وقد ابلى بلاء حسنا فى ثورة القاهرة الأولى وسجن فى القلعة وقتل شهيدا بيد الفرنسيس ولم يعرف له قبر !

وكان على رأسهم أيضا الشاب الصالح والنبيه الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحى الشافعى الأزهرى . حفظ القرآن والمتون وحضر دروس اشياخ العصر ، وكان مهذب النفس كريم الذات حلو الناطقة لطيف الطلعة خفيف الروح ، واتهم فى حادثة الفرنسيس وقتل مع من قتل شهيدا فى القلعة ، ولم يعرف له قبر !

وفى قائمة الشهداء نقرا اسم الشيخ اسماعيل البرادى الشافعى ، وكان شديد النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل ، واشترك فى ثورة القاهرة ، وتولى قيادة قطاع كبير يمتد من المشهد الحسينى الى باب الفتوح ، وقد أصيب برصاصة فى المعركة . ونفذ فيه حكم الاعدام وهو جريح وجروحه تنزف دما ، وكان ثابت الجنان رابط الجاش . وهتف فى وجه العسكر الفرنسيس : « الله ينصر الاسلام ويخزى اعداء الدين » !

وسنجد بين الشهداء اسما له رنين ، هو السيد محمد كريم . بالرغم من عدم وجود اى صلة بينه وبين ثورة القاهرة فإنهم أعدموه مع زعمائها .. وبالمناسبة ! فلقد بدأ السيد كريم حياته قبانيا يزن البضائع فى حانوت فى الاسكندرية ، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة ! واتصل بكبار المماليك وصار من صنائعهم ، وقربه مراد بك وأغدق عليه ورفع شأنه وقلده أمر الجمارك ، فلما نزل الفرنسيس فى ثغر الاسكندرية ، تزعم السيد كريم المقاومة ضدهم فقبضوا عليه واتوا به الى القاهرة ، وحبسوه فى

القلعة . وعند تفتيش قصر مراد بك في الجيزة عثروا على مكتوب من السيد كريم الى مراد بك يصف له ما جرى في الاسكندرية ويحثه على حشد العساكر لقتال الفرنسيس . فاشتد غيظهم عليه ولكنهم تركوه محبوسا في القلعة ولم يمسوه بسوء . وعندما قامت ثورة القاهرة وتقرر اعدام زعمائها . اغتنمها الفرنسيس فرصة فقرروا التخلص من السيد كريم ، فطالبوه بمال يدفعه وحددوا له مقدارا يعجز عن دفعه . وأمهلوه اثنتى عشرة ساعة . وإلا يقتل بعدها . وأرسل السيد كريم الى شيخ تجار القاهرة احمد المحروقى . والى المشايخ يستغيث بهم . وصار يصرخ كالمجنون في الناس الذين تجمعوا في ساحة الاعدام : « اشترونى يامسلمين » وكل انسان مشغول بنفسه ومتوقع لشر يصيبه ! فلما انقضت المهلة أركبوه حمارا وشقوا به الصليبة الى أن ذهبوا الى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحا . وضربوه بالنار ، ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت وطافوا به شوارع القاهرة ، والمنادى ينادى : هذا جزاء من يخالف الفرنسيس !

ومع هؤلاء العلماء الافاضل والاعيان المرموقين ، يبرز اسم واحد من أبناء أدنى طبقة في السلم الاجتماعى هو أحمد القراد . وكان يسرح بقرد في شوارع القاهرة يستجدى المارة وينام مع قرده خلف المشهد الحسينى . وكان لطيف الكلام فيه نباهة وفراسة وحسن تصرف فلما قامت الثورة تولى منصب أمين الاتصال وكان القرد هو اكبر خدعة . فقد تولى حمل الرسائل بين زعماء الأحياء . وتولى تنسيق الخطط بين الثوار وابلاغ التعليمات . وأبلى في الثورة بلاء حسنا . ومات القرد قتيلا برصاص الفرنسيس خلال المعركة . وقتل أحمد القراد شهيدا في القلعة وكان أول من أعدم من الشهداء ! .

ولكن يبقى بين هؤلاء جميعا بطل أبطال ثورة القاهرة ، والرجل المعجزة الذى أمسك كل الخيوط بين يديه وادار المعركة كقائد عبقرى وثورى محترف ، وهو الشيخ سليمان الجوسقى . ولا أدرى كيف لم يلتفت أحد من حضرات «المؤلفاتية » إلى هذا الهرم الأكبر في تاريخ مصر الحديث .

ولكن هذه قصة أخرى . المهم أن هؤلاء الشهداء قتلهم الفرنسيس ليلا ، وأعدموهم سرا ، وظنوا انها النهاية . ولكن رواية التاريخ تثبت العكس ، لقد كان موتهم هو .. البداية !! .

ومن حق الشيخ سليمان الجوسقى أن نفرد له فصلا خاصا به . فهو طراز خاص من الثوار . وهو بطل فريد من نوعه ، وهو رجل ولا كل الرجال وكان الرجل صاحب شهامة وصرامة وجبروت . وكان يتولى

مشيخة طائفة العميان ويشرف على أوقافهم ويرعى مصالحهم ويقوم بتحصيل حقوقهم بنزاهة . فاذا ماطل احدهم في الدفع أرسل اليه جيوش العميان فلايجد المماطل بدا من الدفع ! وكان اذا خرج احد العميان عن طاعته احضره موثوقا مكشوف الرأس مضروبا بالنعالات على رأسه وقفاه . من بيته الى بيت الشيخ في الموسكي ، وكان له أعوان يرسلهم الى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون اليه بالسفن المشحونة بالغلال والسمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك . ويبيعها في أيام القحط بأقصى القيمة . ويطحن منها على طواحينه دقيقا ويبيع خلاصته بحارة اليهود ويعجن نخالته خبزا لفقراء العميان يتقوتون به مع ما يجمعونه من الشحادة في طوافهم أثناء الليل وأطراف النهار بالاسواق والأزقة وتغنيهم بالمدائح والخرافات وقراءة القرآن في البيوت ومصاطب الشوارع وغير ذلك . واذا مات أحد من العميان ورثه الشيخ الجوسقي ، وفيهم من ترك الموجود الأعظم والمخزون الأكبر ! وصار الشيخ الجوسقي واحدا من أعيان الصدور المشار اليهم في المجالس ، تخشى سطوته وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ويركب البغال واتباعه تحيط به . وتزوج الكثير من النساء الأثرياء الجميلات . واشترى السرارى البيض والحبش السود . وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ليكون له عليهم الفضل والمنة !

هكذا كانت حياة الشيخ الجوسقي شيخ طائفة العميان حتى قامت الثورة في القاهرة ، وعندما ثار الناس على عسكر الفرنسيس وتجمعوا في الأزهر ، لجأ العامة للشيخ الجوسقي فصرخ فيهم : أليس لكم أبدان وأرواح ؟ الستم بشرا كالفرنسيس ؟ اذن لماذا لا تخرجون اليهم فيبيدونكم أو تبيدونهم ، وهو خير لكم في الحالتين . لأنكم تحيون كالموتى وتزحفون كالأفاعي وتموتون كالذباب ! والهبت كلمات الشيخ الجوسقي الجمع المحتشد .

وعندئذ تقدم اليه شيخ من إياهم يبصره بعواقب كلامه . وينهره عن قول ما يثير الخواطر ويقلق العقول ، فلطمه الشيخ الجوسقي على وجهه ، وصاح فيه : اخرس ياكلب . تحفظ كلام الله وتنطق بكلام الفرنسيس ! .

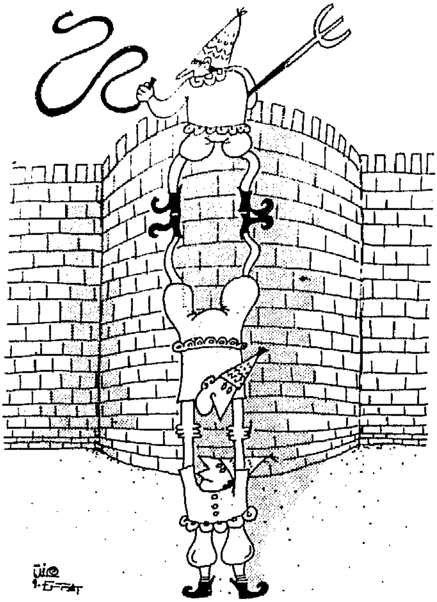
فلما اشتعلت الثورة اخرج الشيخ الجوسقي كل ما في حواصله من غلال ودقيق ووزعه على المقاتلين ، وأخرج ما لديه من مال واشترى السلاح من كل مصدر وبالثمن الذى يطلب فيه ! وبث العميان في كل ركن من أركان المدينة يأتون اليه بالأخبار . ثم انتقل من داره الى الجامع الأزهر ، واتخذ

من رواق العميان مركزا لقيادته . فلما اشتدت المحنة وتضاعفت الغمة ، وكان لابد من رجل واحد لقيادة الثورة ويكون له السمع والطاعة ، اقترح الشيخ البيلى ان تكون القيادة من نصيب الشيخ سليمان الجوسقى ، عندئذ صاح الشيخ سليمان ضاحكا وكان صاحب نكتة وحاضر البديهة : اعمى يقود مبصرين .. ياويلكم ياقوم ! وقبل المنصب وشمر عن ساعديه وظل ملازما لمكانه لم يبرحه . حتى ان الماء لم يعرف طريقه الى جسده خلال الثورة وفى فترة سجنه وحتى مات ! وكان يركب حماره ويشق القاهرة من الغورية الى الصنادقية الى الفحامين الى خان الخليلى الى باب الفتوح يتفقد جبهات القتال ويقف على احوال المعركة بنفسه ويعود الى مقر قيادته فيأمر بارسال المؤن والذخيرة والمحاربين الى الأماكن التى تحتاج اليها . وينفق فى ذلك عن سعة ، ولا يبخل بأى شىء يملكه ، ولقد استخدم سراريه البيض والحبش فى اصطياد عساكر الفرنسيس وجذبهم الى حارات مهجورة . ثم قتلهم والاستيلاء على اسلحتهم . واستخدم كل فنون حرب الشوارع الحديثة ، من القناصة الى الأكمنة ، الى العربات الملغومة ، الى الأطعمة المسمومة . وذات مرة وقع فى أيدى بعض عساكر الفرنسيس وكان يركب حماره ويمر من عند باب الخلق ، وكان يصيح فى الناس ليثبتوا على قتال الفرنسيس . ولكنه نجا من قبضتهم بأعجوبة . فقد ظل يصيح وهو يرعد وينتفض . ونزع عمامته والقى بها على الأرض . ثم ترجل وراح يرقص ويغنى ، فظن العساكر الفرنساوى ان به مسا من الجنون فتركوه لحال سبيله !

وعندما انتهت الثورة اختفى أياما فى بيت احد العميان فى حارة طبل خلف المشهد الحسينى . وظل مختفيا حتى دلت عليه امرأة شركسية من سراريه كانت تحنق عليه لسبب ما . وعندما سألوه فى سجن القلعة عن السبب الذى من اجله تزعم الثورة ضد الفرنسيس . أجابهم قائلا : لأن الله أمرنى بأن احارب اعداء الدين ! .

واحتل الشيخ الجوسقى صفحة باهرة فى تاريخ مصر الحديث . وذهب الى الرفيق الاعلى ، هذا الذى كان شيخا للعميان فصار شيخا للثوار !

□ □ □



الفصل الحادى عشر

وماتت ألفى

وتوالت المحن والمصائب على نابليون ، ثبت له قائد عربى عظيم هو أحمد الجزار وهزمه عند أبواب عكا ، ورده مهزوما إلى مصر ، ودبت الروح فى المماليك من جديد فهاجموا مراكز الفرنسيس فى الجيزة والوجه البحرى واستولوا على قلعة أبو قير وقتلوا من فيها من الفرنسيس ! وعندما اكتشف نابليون أنه بدأ يغوص فى رمال مصر المتحركة ، هرب ذات ليل وحيدا فى موكب صغير وخلفه الچنرال كليبر فى قيادة قوات الفرنسيس فى مصر ! وتولى كليبر توقيع اتفاقية الجلاء مع مندوب الباب العالى واستعد الفرنسيس للرحيل ، وعندما استبد الحماس بأبناء البلد فأرادوا الانتقام من نصارى الأروام الذين ساندوا عسكر الفرنسيس وأعانوهم على ظلم أهل مصر ، فلما كبس العامة حارات نصارى الأروام أطلق عليهم أهلها النار من الطيقان ومن فوق الأسطح ، وانتشرت الثورة فى القاهرة ، وتزعم الثورة السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بك الجداوى وعثمان الأشقر . واتخذ زعماء الثورة من حى الجمالية مركزا لقيادة الثورة ، وكان كل من قبض على فرنساوى ذهب به إلى الجمالية وسلمه لعثمان كتخدا، وكذلك من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية يذهب به إما لنصوح باشا فى الأزبكية وأما إلى الجمالية ، وانضم أولاد البلد إلى عسكر العثمانلى وعسكر المماليك وحرسوا الأبواب والحارات والخطط ، وراحت قيادة الثورة تمد الجهات التى تطلب النجدة بالرجال المسلحين ودخل محمد بك الألفى القاهرة ثانى أيام الثورة وتمترس فى ناحية السويقة ، وتولى رجل من المغاربة قيادة مجموعة من أهل البلد أبلت بلاء حسنا ، وأظهر الرجل المغربى ومن معه من الرجال شجاعة تفوق الوصف وقتل من الفرنسيس مقتلة عظيمة . وأما بولاق فإنها قامت على

ساق واحدة ، وتصدر الحاج مصطفى البشتيلى وهيج العامة وهجموا على وطاق الفرنسيس عند ساحل بولاق وقتلوا من بقى فيه من عسكر الفرنسيس ونهبوا ما به من قماش وخيام ومتاع وغيره ! وعندئذ عاد الجنرال كليبر على رأس جيشه وحاصر القاهرة وكبس على بولاق وعزلها عن بقية أخطاط مصر ! وعندئذ اشتد الكرب والضرب وواصل الفرنسيس ضرب مصر بالمدافع ، وعدمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات ، وشح الماء الصالح للشرب ، وبلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا . أما النهر فلا يكاد يصل إليه أحد . وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والدريس ، وتولى حسن بك الجداوى قيادة قوات القاهرة وأبلى بلاء حسنا ، ولكن قلة الزاد وندرة المياه قلبتا موازين المعركة فى صالح الفرنسيس ، وذهب بعض المشايخ إلى صارى عسكر فرنسا يطلبون الصلح ، ووافق صارى عسكر بشرط خروج العسكر العثمانلى وأيضا عسكر المماليك من القاهرة ، وأعطى أبناء المدينة أمانا بشرط أن يلزموا دورهم وأن يلقوا السلاح . فلما عاد المشايخ بشروط الصلح هاج العامة عليهم وأسمعوهم قبيح الكلام وضربوا الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى ورموا عمائمهم على الأرض. فلما غاب المشايخ عن الحضور بالجواب أرسل صارى عسكر إلى المحاربين من أهل القاهرة يسألهم رأيهم فى عرض الصلح وجاءه الجواب : لا صلح ولكن الحرب بيننا وبينكم حتى نظفر بكم أو نموت !

وجاء يوم الهجوم الأكبر على القاهرة . غابت الشمس فيه وأمطرت السماء وأرعدت ، ودك الفرنسيس المدينة وأشعلوا فيها النار ، وكان معظم كبستهم من جهة باب الحديد وكوم أبى الريش وجهة بركة الرطلى وقنطرة الحاجب والحسينية والرميلة ، وهجموا على بولاق من ناحية النيل ومن بوابة أبى العلا ، وقاتل أهل بولاق جهدهم وألقوا بأنفسهم فى النار حتى غلب الفرنسيس عليهم وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله الغراب !! وقبضوا على الحاج مصطفى البشتيلى بطل معركة بولاق وسلموه لأهل بولاق من فقراء الناس الذين لم يقاتلوا ولم يشتركوا فى أحداث الحرب ، وأمروهم بقتله لأنه سبب الفتنة وخراب بيوت الناس !! وكان الحاج مصطفى البشتيلى الذى عروه من ملابسه شجاعا لا يهاب الموت ، وقف وسط الجمع المحيط به يشتم الفرنسيس ويلعن أعداء الدين ، ثم تكاثر عليه العامة وضربوه بالنبابيت حتى مات ، وذهب

مصطفى البشتيلى وباقة من أبطال القاهرة لمقابلة الرفيق الأعلى ، وذهب بعض المشايخ الأرزقية لمقابلة الرفيق كليبر . يطلبون منه الصفح والأمان ، ولكن كليبر لا يلدغ من جحر مرتين . إحتقر مشايخ الصلح وأهانهم ، وفرض عليهم فردة كبيرة ، وهدد بإعدامهم إذا تأخروا عن سدادها . وكانت النتيجة أن الشيخ السادات بال على نفسه ، وفعل الشيخ الشرقاوى ما هو أخزى من هذا ، وعندما أفرج عنهم صارى عسكر فى المساء ، خرج مشايخ الصلح حفاة يهتفون : يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ! وستجرى الأحداث بسرعة القطار ، وسيضطر نابليون إلى الخروج من مصر ، وسيوقع على وثيقة ذليلة تسمح لجنوده بالجلاء عن مصر فى أمان ، وستنتصر بريطانيا العظمى ، وستفرض سياستها فى وادى النيل ، غير أن الريح تأتى عادة بما لا تشتهى السفن . كان الرجل الذى اختارته الامبراطورية العثمانية ليفرض القانون والنظام فى القاهرة هو محمد على ، وكان رجل دولة من الطراز الأول . كفئا وطموحا وداهية . يجيد استخدام كل الأوراق التى تحت يديه لتحقيق أهدافه ، وكان يدرك ببصيرته السياسية أن امبراطورية آل عثمان قد ماتت ولا ينقصها إلا الدفن . وكانت أطماعه وأحلامه تتفق مع سياسة فرنسا وتتناقض مع سياسة بريطانيا ، ولكن ساسة لندن لم يفطنوا فى البداية إلى هذا الأمر . فلما فطنوا إليه لجأوا إلى محمد الألفى آخر المماليك العظام . وسرعان ما تفاهموا معه وعقدوا معه حلفا ، وأخذوه معهم سرا على سفينة حربية إلى لندن وقضى هناك عاما وبعض عام . تلقى خلالها دروسا فى اللغة الانجليزية ، وعندما اتضح للجميع اتجاه محمد على ، ورغبته فى إقامة امبراطورية عربية تحل محل امبراطورية آل عثمان وتقوم على أنقاضها ، مستعينا بالخبرة الفرنسية . حملوا محمد الألفى من جديد على ظهر مدمرة إنجليزية وألقوا به على شاطىء دمياط ، وهكذا بدأت المواجهة بين انجلترا وفرنسا من جديد على ضفاف النيل ، أو بين محمد الألفى ومحمد على ، وكان الرهان والميزان والظروف كلها مع الألفى وضد محمد على ، ولكن النتيجة كانت انتصارا لمحمد على ، وهزيمة كاملة لمحمد الألفى ، ولكن قبل الدخول فى تفاصيل الصراع بين الرجلين ينبغى أن نتوقف عند حادث مضىء فى تاريخ مصر والعرب . هو مقتل كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد هروب نابليون . لقد جاء ولد شامى من حلب يدعى سليمان ، ودخل فى طلبة الأزهر ، وانتظم طالبا فى رواق الشوام وقضى أياما فى القاهرة منطويا على نفسه ، ثم كمن للقائد الفرنسى فى حديقة الأزبكية وانقض عليه وقتله ،

وألقوا القبض عليه وساقوه للمحاكمة ، وحاولوا أن ينتزعوا منه اعترافا بأسماء شركائه الذين عاونوه على دخول مصر وساعدوه على قتل كليبر . ولكن الرجل الشامى لزم الصمت ، فعذبوه ولكنهم لم يظفروا منه بشيء . فليس للرجل شركاء ولا أعوان ، ولم يحركه شيء إلا الغضب القومى ، وإحساسه بأن ما يضر مصر يضر الأمة العربية ، وما يسيء إلى مصر يسيء إلى كل عربى ، ولم يفهم الفرنسيون طبعا مغزى هذا الكلام ، وظنوه هوس شاب مجنون ، وأقاموا محاكمة للحلبى وحكموا بموته على الخازوق ، وكان سليمان الحلبى أول شهيد للقومية العربية فى العصر الحديث ، وأول فدائى عربى بعد أن جثم آل عثمان على صدر الأمة وكتموا أنفاسها !

المهم أن محمد الألفى آخر عبقرية مملوكية نزل عند شاطىء دمياط واستقل قاربا وتوغل فى فرع دمياط قاصدا القاهرة ، وكان المماليك لحظة نزوله إلى البر قد انقسموا قسمين . قسم مع الألفى وقسم مع محمد على ، ولذلك علم الوالى بالأمر فسير للقبض على المملوك المتحرر عساكر وبث فى الأرجاء مئات من البصاصين ، ولكنهم لم يعثروا على الألفى إلا عند قرية سرياقوس . فاضطر للهرب ولجأ إلى قرية الخانقاه (الخانكة) واحتمى ببعض الأعراب ، وأخفاه هؤلاء عن أعين السلطة . ثم انقلبوا عليه بعد ذلك وشلحوه من متاعه وسلاحه وعروه من ملابسه . ونجا من قبضتهم بمعجزة واستطاع المرور من خلف القاهرة عبر جبل المقطم ، وحث السير فى طريقه إلى الصعيد ، واجتمع حوله كل المماليك الهاربين من محمد على والطامعين أيضا ، وأصبح محمد الألفى قوة يحسب لها ألف حساب . ولم يكن الرجل من طراز المماليك الذين يغيرون مواقفهم حسب الأحوال ، ولم يكن من الصنف الذى تستميله الصلات والعطايا ، ولكنه كان من النوع الذى يؤثر فى التاريخ ويصنعه ، وكان شجاعا وكريما ومتواضعا وشهما ، وكان بهيئته وخصاله أميرا بحق . وأصله من مماليك الجراكسة ، وقد اشتراه عثمان بك الطنبورجى وهو فى الثالثة عشرة ، وكان الطنبورجى محبا لمجالس اللهو والطرب . شغوفا بالعطور والنساء ، ولذلك طلب المملوك الصغير محمد من سيده أن يبيعه لأنه لا يطيق مثل هذه الحياة ، واغتاظ الطنبورجى بك من مملوكه الصغير وقرر أن ينتقم ، فأهداه إلى على بك الكبير ، وكان رجلا جادا وحازما وقاسيا على مماليكه ، وتصور الطنبورجى أن المملوك المتمرد سيلقى حتفه نتيجة القسوة التى سيلقاها فى معسكر على بك ، ولكن لم تكد تمضى شهور قليلة حتى استدعى على بك صديقه الطنبورجى وأهداه ألف أردب حنطة مقابل المملوك الصغير

محمد ! وكانت الألف أردب حنطة فى ذلك الزمان - زمان القحط والمجاعات - تساوى الشىء الكثير ، ولذلك أطلق المماليك على المملوك الصغير محمد لقب الألفى . لأن على بك الكبير دفع فيه ألف أردب حنطة ! وتعهده على بك بنفسه وقربه إليه ، وتنبأ له بولاية مصر من بعده !

وسرعان ما ألف محمد الألفى جيشا كبيرا ، وتبعه عدد كبير من عمد وأعيان البلاد ومن جماهير الناس الذين كانوا يعرفون فضل الألفى وشجاعته ، وعندما عرف محمد على بالأمر حاول أن يستميل إليه عددا من كبار المماليك ، ولكنه لم يجد إلا الصد حتى المماليك الذين كانوا قد توهموا أن محمد على قد استتب له الأمر وعاشوا فى كنفه ، أخذوا يتسللون واحدا وراء الآخر تحت جنح الظلام ليلحقوا بمحمد الألفى ! وحاول بعد ذلك أن يستأجر بعض الأشخاص لاغتيال محمد الألفى فى الصعيد ، ووافقه بعض من فاتحهم وتناولوا أجرهم عن ذلك . ثم هربوا وانضموا إلى محمد الألفى . وحاول محمد على أن يخدع الألفى فيعقد معه اتفاقا يتولى بمقتضاه الألفى نيابة مصر ويتولى محمد على قيادة الجيش ، ولكن الألفى لم ينخدع وتحرك بجيشه من الصعيد زاحفا نحو القاهرة ، وكان يجد ترحيبا بالغا فى كل مكان يدخله ، وفى منفلوط استقبله قاضى المدينة وأهداه كمية من أجود أنواع الرمان وأهداه الألفى مقطعا من الحرير الهندى وخلع عليه فروة سمور ومنحه ألف عثمانلى ذهبا ، ولم تكن هذه هدايا مملوك عادى ، ولكنها كانت هدية ملك ! ولقد ظل محمد على يرتعد خوفا كلما ترامت إلى أسماعه أنباء محمد الألفى الزاحف صوب القاهرة ، وجمد مكانه عندما سمع بأن جيش محمد الألفى قد وصل إلى بر الجيزة .. إنها الحرب إذن !

وكما كان محمد الألفى مقاتلا من طراز عظيم . كان محمد على سياسيا داهية من طراز خاص ، ولذلك لم يسارع لمواجهة عسكرية مع محمد الألفى . بل استعد للحرب دون أن يتورط فى معركة ، وأرسل عددا من البصاصين ليتعقبوا جيش محمد الألفى ويبلغوه بخط سيره أولا بأول ، وعندما علم محمد على بأن الألفى قد عبر الصحراء من خلف الأهرام فى طريقه إلى قرية أوسيم . خرج محمد على بجيشه من القاهرة وعبر النهر وكمن وراء تل كبير عند قرية وراق الحضر ، وعندما مر جيش محمد الألفى . ووقع نظر محمد على عليه . آثر أن يبقى مكانه مختبئا وراء الأكمة حتى مر جيش الألفى . ثم سارع فى العودة إلى القاهرة . لقد أدرك محمد على الداهية أن المعركة لن تكون لصالحه . فآثر أن يختفى فى القاهرة وأن

يحتمى خلف أسوار القلعة . وريثما تحين فرصة للقضاء على جيش الألفى . ولكن حظ محمد على لم يسنح للحظة المواجهة أن تحدث . إذ لم يلبث الألفى بعد أن تجاوز وراق الحضر بقليل أن شعر بضيق فى تنفسه فأمر جيشه بالتوقف وقضاء الليل هناك ، ولكن حالته أخذت فى التدهور وبلغت أقصى حالات السوء قبل الفجر بقليل . وخرج الألفى من وطاقه وصعد على تل قريب لقضاء حاجته . ورنا ببصره نحو القاهرة فإذا بها تسبح فى النور . وهتف الرجل حزينا والألم يعتصر قلبه : أيا مصر ، يسكنك الغزاة والأجناد من كل جنس وكل ملة . وأبناؤك الميامين يهيمون على وجوههم فى القفار كالبوم والغربان . ولم يطق الرجل فحم وتقيأ دما و .. مات !!

وبكى المماليك حول جثة الألفى كما لم يبكوا قط ! وعهدوا إلى أحد الأعراب بحمل جثته ودفنه فى قرية البهنسا ، ولقد ذهب الأعرابى الذى دفن الألفى مسرعا إلى القاهرة وصعد إلى القلعة وقابل محمد على وبشره بموت الألفى فلم يصدقه ، واستغرب ذلك ، وحبس البدوى الذى أتاه بالبشارة أربعة أيام ! وعندما ثبت موته عند محمد على امتلأ فرحا وسرورا خلع على البدوى فروة سمور وأعطاه مالا وفيرا وأمره أن يركب بتلك الخلعة ويشق بها من وسط القاهرة . ولكن سكان المدينة لم يصدقوا الخبر ، وظنوا أن فى الأمر حيلة . لأنه لما سافر إلى لندن لم يعلم بسفره أحد ، ولكن الخبر الذى لم يصدقه الناس لم يلبث بعد أسابيع أن تأكد ! وعندئذ تفرقت قبائل العربان التى كانت متجمعة حوله ، وبعضهم أرسل فى طلب الأمان من محمد على . ولم يسر أحد بموت محمد الألفى مثل محمد على . فقد كان يردد دائما : مادام هذا الألفى موجودا لا يهنا لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب !

ولهذا .. عندما أتاه المبشر بموت محمد الألفى قام فرقص بالسيف ، وقال : الآن طابت لى مصر وما عدت أحسب حسابا لغيره !

ولقد كان محمد الألفى ميزة ينفرد بها عن جميع الذين سبقوه والذين عاصروه من المماليك ، وهى امتثال جميع قبائل العربان بمصر لأمره وتسخيرهم وطاعتهم له لا يخالفونه قط ، وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم وطبائعهم ، يقومون ويقعدون لأمره . مع أنه يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ومواشيهم ويحبسهم ويطلقهم ويقتل منهم ، ومع ذلك لا ينفرون منه ، وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق فى عصمته غير واحدة كان شديد التعلق بها وقد مات عنها ، ولما بلغ العرب موته اجتمعت بنات

القبائل وصرن يندبن بكلام عجيب تناقلته مطربات العرب وركبن عليه دورا وقوافٍ ، وصار الألفى بين النجوع والكفور شهيد الحب والعشق والشجاعة ..

وليس أعجب من موقف البدو تجاه محمد الألفى عندما هرب من مماليك البرديسى ومن محمد على فى وقت واحد . فقد هرب عند بدوى يدعى عشيبه . فأواه وأخفاه وكتم أمره ، والبرديسى ومن معه يبالغون فى البحث والتفتيش وبذل الأموال ورصد المكافآت لمن يدل عليه ! ولم يفشوا سره ولم يدلوا عليه ، وبثوا فى الطرق انفارا منهم تحرس الطريق وتكشف له المجهول . حتى قيل يومئذ ان محمد الألفى ساحر يسحر الناس ، وذلك بالقياس إلى فعل البدو فى الماضى مع غيره من الناس . فقد لجأ سلطان مصر طومان باى ذات يوم إلى شيخ أعراب البحيرة ، وبعد أن أقسم له بحمايته . ذهب إلى معسكر السلطان سليم العثمانى ودله على مكان طومان باى وسلمه إلى حبل المشنقة ، ولكن الأمر مع محمد الألفى كان يختلف ..

ولقد أوصى محمد الألفى المماليك قبل موته بعدم الدخول فى طاعة محمد على وحذرهم من مكره ، وعين شاهين بك خليفة له من بعده ، وعاب على الانجليز نكثهم بوعودهم ، لأنهم كانوا قد وعدوه بإرسال فيلق بريطانى لتمكينه من استرداد ولاية مصر وطرد محمد على . لقد انتظرهم محمد الألفى طويلا ولكن لم يظهر لهم أثر ! وبعد موته وصلت العساكر الانجليز إلى الاسكندرية . فلما علموا بموته أبدوا استعدادهم لنجدة من يريد من المماليك ومساعدته على تولى حكم مصر . ولكن المماليك كقوة سياسية وعسكرية وكمؤسسة لها شأنها فى الحياة المصرية . كانت قد انتهت بموت الألفى . وكانت مذبحة القلعة مجرد تحصيل حاصل ! لأن محمد على لم يقتل إلا أشباحا ، ولم يذبح إلا بقايا وأشلاء كانت تحمل اسم المماليك وليس له صفاتهم . ولقد كان القضاء عليهم هو حتمية التاريخ لتدخل مصر فى دائرة الضوء ، ولتكسر قضبان الخضوع والذلة والتخلف . كان محمد على حاكما موهوبا وكان داهية فى أمور السياسة . ففتح العقل على كل ما حوله من تيارات العصر ، ولذلك إتجه إلى فرنسا وتعاون مع حركة السان سيمونيين وكان كما قال بيرم التونسى بحق : « محمد لما شرفها / بعينه المبصرة شافها / كنوز بس اللى يعرفها ويعرف ينتفع بيها / مزارع جوها داق / وطولها وعرضها واق / وليه يمشى ابنها حاق / يمد الآيد ويطويها » .. ولقد أبصر محمد على كل هذا . وأدرك مغزاه !

□ □ □



وجاء الأفغاني

ولكن قبل الدخول فى رحلة طويلة مضنية مع محمد على ينبغى أن نسدل الستار على المماليك بالوقوف عند مذبحة القلعة ! إذ أنه بعد موت الألفى . استطاع محمد على أن يشق صفوف المماليك وأن يفرقهم . واستمال بعضهم وحارب البعض الآخر . ثم عفا عن الجميع ، وسمح لهم بالدخول إلى القاهرة وأغدق عليهم وأقطعهم الاقطاعيات وعمر لهم الدور والقصور وقرر لهم المرتبات الضخمة ، وكان يرسل إليهم الهدايا الثمينة ويدعوهم إلى مجلسه حتى اطمأنوا إلى محمد على ووثقوا فيه . ومضت الحياة هنيئة بالمماليك ، يتزوجون ويتناسلون ويجمعون الاتاوات من الفلاحين . ولكن محمد على ظل يقظاً لا يغمض له جفن . وعندما أدرك أن الساعة قد حانت شرع فى تنفيذ خطته على الفور . ولكنه كان يبحث عن مناسبة ، وجاءت المناسبة حين أصدر محمد على فرمانا بتعيين إبنه طوسون قائدا للحملة المصرية المسافرة إلى بلاد الحجاز . ثم قرر الاحتفال بسفر الحملة شعبيا ورسميا ، وأطلق فى المدينة المنادين ، وقد ارتدى كل منهم عدة الشغل : الطبق على رأسه ، ويرتدى الضلمة وراكب حمار عال وأمامه مقدم بعكاز وحوله قابجية ينادون « يارن الاى » . وهكذا هبت على القاهرة نسمات من الماضى البعيد المجيد ، ولكن أحدا لم يتصور لحظتها أن محمد على قد قرر بالفعل عبور جسور التاريخ ، والعودة بمصر إلى سابق مجدها القديم ! .

انتظم الموكب صباح يوم السادس من محرم عام ألف ومائتين وستة وعشرين فى صحن القلعة ، وأطلع الأمراء بمماليكهم وعساكرهم فدخل الأمراء عند الباشا وسلموا عليه وشربوا القهوة معه وتضاحك معهم ، وكان بسيطا وبشوشا ومرحا على نحو ما وعندما بدأ سير الموكب إلى خارج القلعة منحدرا فوق الطريق الحجرى نحو المدينة . خرج طوسون باشا وعساكر الولاة والفرسان ثم الأعيان والتجار . وكان المماليك فى نهاية الموكب بقيادة شاهين بك الألفى . ولكن قبل أن يخرج المماليك من باب القلعة . أغلق الباب فجاة وانهال عليهم الرصاص من كل جانب ، وفهم العساكر المتترسون فوق الأبراج المراد فاطلقوا النار على المماليك فى الحال ، وخر منهم عشرات صرعى فى الحال ، وألقى الآخرون بما على أكتافهم من ملابس ثقيلة وركنوا إلى الفرار داخل القلعة . ولكن الرصاص حصدهم فسقطوا كالجراد . ووقع شاهين بك مصابا بطلقة فى صدره . فهجم عليه عساكر محمد على وأجهزوا عليه بالطعنات ثم قطعوا رأسه وجروا به إلى حيث كان يجلس محمد على يشرب القهوة . وذلك ليحصلوا من الباشا على الحلوان ! وكان كلما سقط كبير من المماليك قطعوا رأسه وجروا به للباشا لتهنئته وتناول المعلوم . وفى الحال . وعندما ترامت أنباء المذبحة إلى العامة فى المدينة وإلى عساكر محمد على . سارع الجميع إلى الهجوم على بيوت المماليك . ففسقوا فى النساء والجوارى وعروهن وسلبوا حليهن . وكان الجندى الأرناؤوطى يحاول استخلاص السوار من معصم السيدة فلا يستطيع فيعمد إلى قطع يدها للحصول على ما يريد . ونهبوا الدور بما فيها من فرش وأثاث وتحف ، وسلبوا سكانها نقودهم . وخطفوا الجوارى والغلمان ، وبعضهم سكن الدور واكتفى بطرد السكان وقتل بعضهم . أما المماليك داخل القلعة فقد قاوموا ببسالة وهجموا على عسكر محمد على بالسيوف ، ولكنها كانت مقاومة اليأس الذى انسدت كل السبل فى وجهه . وعندما أدركوا أنها النهاية ، طلبوا وقف اطلاق النار ريثما يتم لهم إقامة الصلاة الأخيرة . ولقد سمح لهم الجند بتحقيق هذه الأمنية . وسجدوا جميعا على أرض القلعة ، وتيمموا لتعذر وجود الماء . ولم يطل أحد منهم فى صلاته ، بل سارعوا بها وأسرعوا فيها وطلبوا من الله الصفح والغفران ، ثم وقفوا أمام الموت بشجاعة . وتلقوا مصيرهم برباطة جاش . ولم ينج من المذبحة الرهيبة إلا أمين بك . الذى تسلق أسوار القلعة بحصانه ، وقفز من هذا العلو الشاهق ، وقد انكسرت ساقه ، ولكنه تمكن من الهرب ولاذ بالفرار فى الصحراء الشرقية ولم يلبث أن ظهر بعد ذلك فى بلاد الشام !

ولم يكن كل المماليك بالطبع فى القلعة لحظة وقوع المذبحة . كان بعضهم غائبا فى الأرياف لجباية الفرد والضرائب وحق الطريق وغيرها من المظالم ! وقد انيط أمر هؤلاء بحكام الأقاليم ، وقام هؤلاء بالمهمة على الوجه الأكمل ، وقتلوا كل من كان عندهم من المماليك وقطعوا رءوسهم وأرسلوها إلى القاهرة . أما المرضى وكبار السن فقد طلبوا الأمان من محمد على فأمنهم وعندما ظفر بهم احتجزهم أياما ثم قطع رءوسهم وحشاها تبنا وعلقها على أغصان الشجر فى الرميلة وحول القلعة . وقد لجأ ثلاثة من المماليك الشبان إلى بيت الشيخ السادات واستجاروا به ، فطلب من محمد على الأمان لهم ، فاستجاب لطلب الشيخ السادات ، وبعث فى طلبهم ، فارتابوا فى الأمر ، وقالوا : إذا كان قد أعطانا الأمان فلماذا يطلبنا ؟ ولكن الشيخ السادات طمأنهم وطيب خاطرهم فأذعنوا وطلعوا إلى القلعة ، فعراهم الجند من ثيابهم وسلبوهم أموالهم ، وزجوا بهم فى الحبس ، ولم تمض أيام حتى ذبحوهم ذبح النعاج وطافوا برءوسهم فى حوارى القاهرة !

وهكذا انطوت من تاريخ مصر صفحة المماليك المثيرة الرهيبة الباهرة ، وتمت تصفية أعظم حزب سياسى شهدته مصر فى القرون الوسطى . واختفت من فوق المسرح السياسى المصرى طائفة أضافت إلى أمجاد مصر أمجادا خالدة ، وكسبت لها انتصارات بقيت مضيئة على مر التاريخ . وبزغت من صفوفها كواكب تفخر مصر ببنوتهم ، قطز والظاهر بيبرس وقلاوون وقنصوه الغورى وطومان باى وعلى بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب ومحمد الألفى ! وانتهت إلى الأبد حكاية المماليك ، وطابت مصر لمحمد على !

ولكن محمد على العظيم لم يأت عبثا ولم يذهب سدى ! أيقظ مصر من غفلتها ووضع السلاح فى أيدى بنيها ، وسار بهم من نصر إلى نصر . وجاء بفلاح من الصعيد وأرسله إلى فرنسا ، ولما عاد عينه رئيسا لتحرير « الوقائع » المصرية ، وأمم الأرض الزراعية وانتزع من مصر براثن الاقطاع إلى ملكية الدولة . وفرض التجنيد الاجبارى ، وخرج الجندى المصرى عن مجاله التقليدى حتى فى عصوره الزاهية ، فحارب فى اليونان وفى روسيا القيصرية ، وعبر المحيط إلى المكسيك وسكن المصريون لأول مرة الدور الفخيمة ، واقتنوا التحف الثمينة ، واكتشفوا أنهم ليسوا أدنى درجة من صنف الجركس والأروام ، واكتشفوا شيئا أهم .... اكتشفوا مصر ! ولذلك بكى المصريون عندما فقدوا محمد على ... كأنهم فقدوا قطعة من روح مصر . ولعل بكاءهم كان له سبب آخر ، لأن محمد على ترك وراءه

حكاما دون المسئولية ، جهلة ومتعاظمين ، وعلى درجة عالية من التفاهة ، ورأوا أن محمد على أضاع حياته فى مالا يجدى ، وقضى العمر فى ما لاينفع ، وأن الحاكم الفذ هو الذى يستمتع بالسلطة ، ويهنأ بالسلطان !! ومر سعيد وعباس ومصر فى حالة أكثر انحطاطا مما كانت عليه أيام المماليك . فأغلقت المصانع أبوابها ، وتحول الجيش إلى أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفى تشييع جنازات العظماء !

وجاء الخديو اسماعيل ، وهو رجل طموح . ولكنه فى الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ! ولقد رأى أن محمد على تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ، ولذلك قرر أن يهادن الغرب وأن يستفيد منه إلى أقصى درجة ! وما دام الغرب قويا فلابد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التى يحياها الغرب ، فقرر أن يتحول بمصر إلى الحضارة الغربية ، وهنا أخطأ اسماعيل فى الحساب ، لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب ، ولكنها نتاج ظروف موضوعية وتاريخية ، وحاصل عمليات اقتصادية وعلمية ، ونتيجة مناخ لم يكن متوافرا فى مصر ، ولم يكن اسماعيل على استعداد لتوفيره لها . ولذلك سنراه يغرق فى الديون حتى أذنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا !! ولقد نجح اسماعيل فى ذلك بالفعل . شق الشوارع والميادين ، وبث النافورات والتماثيل ، وأقام المتاحف والمعارض ، ومد الجسور على النيل ، وشيد القصور الملكية على أرقى هندسة العصر ، وافتتح دارا للأوبرا ودارا للتمثيل ، وألف مجلسا للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنوادى فى عاصمة مصر ! ولكن مصيره لم يمتد إلى أبعد من القاهرة ، وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون فى الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف فى نظره إلا مخزنا للطعام ، ومستودعا للبشر المستعدين دائما للخدمة .. وللصبر !! وعندما مات اسماعيل كانت مصر تغوص فى مستنقع الديون .وترك وراءه طبقة تعيش على أرض مصر ، وتجيد الحديث بالتركية والفرنسية ، وترى فى استعمال اللغة العربية تخلفا ! والانتساب إلى الفلاحين وصمة ! والانحدار من أصول مصرية إهانة ! وكان من مفاخر هذه الطبقة أنهم ينحدرون من أصول قوقازية أو تركية أو جركسية أو أرمنية ! وسنرى رئيسا لوزراء مصر أرمنيا اسمه نوبار باشا ! وجركسيا قائدا لجيش مصر اسمه السلحدار باشا ! وسنرى كل شذاذ الآفاق فى كل موقع وفى كل منصب ، وستصبح مصر هدفا لهجرة كل حالم بالثراء فى أوربا ، وكان نصاب ودجال وكلاوجى ، أصبحت مصر هى البقرة التى تحلب

اللبن ، والدجاجة التى تبيض الذهب ، وبدأ عصر المتعة الحقيقية والاسترخاء الطبيعى ، عصر الريف وتجار القطن الأجانب ، وسماسرة البورصة ، إنه الانفتاح بلا قيود ولا سدود ..

وعندما جلس توفيق على عرش مصر كانت مصر تغلى فى الأعماق ، وكان الشارع المصرى يعانى من الضياع ، والمواطن المصرى يعانى من الاذلال ، والجندى المصرى يعانى من غطرسة الارستقراطية العسكرية التى تتكون أساسا من ضباط أجانب خليط من الجركس والأرناؤوط والألبان ..

وفى هذه الأثناء مر على مصر رجل كالأنبياء ، قاطع السيف ، واضح كالشمس ، هو جمال الدين الأفغانى ، وتعجب من الحال التى وصلت إليها مصر ، شعب صابر ومسالم ، وحاكم فاجر ، وعصابة من اللصوص الأجانب ! وجلس الرجل الذى كانت الثورة حرفته على مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه فى تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه ! وكان الرجل يصرخ فى وجه تلاميذه ، عجبى على هؤلاء المصريين يجرى النيل فى بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن ! إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك !! إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتم كل شىء ، ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة !! وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم ، حتى ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه ، وكانوا خليطا من أنواع شتى ، طالب الدين محمد عبده ، والجندى أحمد عرابى ، والشاعر محمود سامى البارودى ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدى ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ، ولفتت الندوة انتباه السلطة ، وجذبت رائحتها أنوف جواسيس الحكومة ، وكان الأمر أكثر من أن يحتمل ! وذات صباح هجمت عساكر الخديو على دار الأفغانى ، واختطفت الرجل من فراشه ، وأبعدته عن مصر ، وظنت أن الأمور قد سارت فى الطريق الذى حددته ، ولكن الأمر الذى تركه الأفغانى فى مصر كان أكبر من كل تصورات السلطة ، ومئات الرجال الذين كانوا يلتفون حوله على مقاعد متناثرة فى مقهى متاتيا ، تحول كل منهم إلى جمال الدين الأفغانى ! وإذا كان الثائر قد مضى فإن تعاليمه قد بقيت ، وكلماته الخالدة قد استقرت فى الأرض ..

والقائد الحقيقى ليس هو الذى يقود فى حياته ، ولكن هو الذى يترك خلفه مصابيح تضىء الطريق من بعده ، وما أكثر المصابيح التى تركها الأفغانى ، وهو لم يترك مصابيح فقط ، ولكنها كانت مصابيح ومواد

ملتهبة فى آن واحد . وسرعان ما تفجر الأمر كله عن بركان سيهز مصر هزا عنيفا ، وسيشعل النار فى كل شىء ، سيزلزل الأرض تحت أقدام الطغاة ، وسيدهش العالم كله ! وسيثبت حقيقة مصر الأبدية ، إن الحياة تمضى بها فى هدوء ، حتى يخيل للبلهاء أنها فى غيبوبة ، ثم لاتلبث أن تنفجر فجأة ، ويكون لانفجارها دوى عظيم ، وكان الانفجار هذه المرة أعنف مما تصور البعض ، وأخطر مما تنبأ به البعض..

.... إنها الثورة !

□ ■ □



الصعلوك في الثورة!!

كانت الثورة هى قدر مصر ، وكان محمد على الكبير قد نجح فى لفت نظر المصريين إلى قدراتهم ، وكشف لهم عن إمكانات بلادهم ، وما كان يمكن للمارد أن يعود إلى القمقم من جديد . وكان الباشوات ووجوه الطبقة التى نشأت وترعرعت تحت جناح أسرة محمد على وبحمايتها ، قد وجدوا أن خلفاء محمد على أضعف من تحقيق طموحاتهم ، وكان أرباب التجارة وأصحاب الأرض الزراعية قد ضاقوا ذرعا بجهل الحكام واستبدادهم . ولذلك قام الحزب الوطنى من كبار الملاك والتجار والأعيان ، وانضموا فى جبهة واحدة من مجموعة الضباط الأحرار الذين كان يتزعمهم ضابط فلاح هو أحمد عرابى ، والذى كان يوما ما تلميذا لجمال الدين الأفغانى . غير أن التلميذ كانت رؤيته تختلف اختلافا يسيرا عن رؤية أستاذه . ولكنه كان فى الوقت ذاته اختلافا جوهريا وعميقا ! لقد كان جمال الدين الأفغانى يدعو إلى دولة الاسلام الواحدة ، ولكن عرابى كان يعمل لاقامة دولة العرب الواحدة ، وكان لهذا الاختلاف بين التلميذ والأستاذ مبرراته وأسبابه . فبينما كان الأفغانى داعية حرية واستقلال من خلال الدين وداخل إطاره ، كان عرابى يرى أن مستغليه وجلاديه ، بالرغم من اعتناقهم للاسلام ، كانوا يتمتعون بجنسيات أخرى ويتكلمون برطانة ! الدين ليس قومية إذن . ولكن العروبة هى الطريق . والذين كانوا يتسلطون على جيش مصر ، وعلى عرابى شخصيا ، كانوا مسلمين ولم يكونوا عربا ، ولكنهم كانوا أرمن وجراكسة وتركمانا ! والتف حول عرابى عشرات من الرجال فى البداية ،

محمود سامى البارودى ، شاعر فحل وضابط محترف وجركسى الأصل صهرته مصر فصار داعية للثورة ، محمود رفقى ، جركسى آخر ضاق بعنجهية أبناء جنسه وشرهم الذى بلا نهاية ، وعبدالعال حلمى ضابط عربى من السودان كانت شجاعته بلا حدود ، وتفانيه وإخلاصه مضرب الأمثال ، وأعيان كثيرون وجدوا فى الثورة المنتظرة تحقيقا لطموحاتهم وإشباعا لأطماعهم ، ومع هؤلاء يقف الشعب كله وراء عرابى ينتظر إشارة ليؤدى واجبه .

لكن سنلمح مع عرابى طرازا آخر من الزعماء : رجلا ضئيلا فقيرا ، لا يملك ثروة وليست له عائلة . ونشأ نشأة متواضعة ، فهو متشرد فى الواقع ، احترف عدة مهن فى بداية حياته ، وهو مسخ متجول يضحك الناس فى المقاهى وفى الأسواق وفى موالد الأولياء ، وهو صاحب دكان يبيع اللبان فى مدينة المنصورة ، وهو أيضا زجال يتكسب بأشعاره أحيانا ، ويهجو بها حساده وأعداءه أحيانا ! وهو فى النهاية أرزقى على باب الكريم ، يكسب ما يكفيه طعامه ، ثم يقتل وقت فراغه فى غرز الحشيش المنتشرة على ساحل البحر فى الاسكندرية ، وحول ضريح الامام أحمد البدوى فى طنطا ، وداخل أزقة الغورية فى القاهرة ، وهو يخالط أغلب الوقت أصنافا من أبناء الشعب ، حشاشين ونشالين وشيالين وقوادين ، وعاطلين بلا عمل ، وهو ، من خلال النكتة والبساطة ، سيتعلم كيف يتفاهم مع الناس ، وكيف يؤثر فيهم ، وكيف يقودهم بعد ذلك إلى الثورة .

هذا هو عبدالله النديم ، أنصع صفحة فى كتاب ثوار مصر ، وهو مع عرابى وسعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبدالناصر ، المصريين الحقيقيين الذين صنعوا تاريخ بلادهم خلال العصر الحديث !

ولقد كان من الممكن أن يعيش عبدالله النديم ويموت دون أن يسمع به أحد اللهم إلا رواد المقاهى وزبائن غرز الحشيس ورواد المساجد الذين يقصدونها للنوم وليس للصلاة ، لولا أن قدميه ساقتاه يوما إلى مقهى متاتيا فى العتبة ، وهناك وجد جماعة من الناس تجتمع حول رجل معمم ، قصير القامة ، ربعة القوام ، شديد الحماس ، عنيف الثورة ، وكان الرجل هو جمال الدين الأفغانى ، وكأنما عثر النديم على ضالته ، ومنذ تلك اللحظة التى وقع فيها بصره على الأفغانى ، ترك النديم خلفه دنيا الصياعة والضياعة ، وودع إلى الأبد غرز الحشيش وحلقات الحشاشين ونذر نفسه للثورة ، وسيتقدم طريق الثوار ، وسيصبح أهم رجل فى الثورة ، وسيقلب مصر رأسا على عقب ، وستقدم السلطة البريطانية فى مصر عشرة آلاف

جنيه ذهبا ، ثمنا لرأسه ، وسيختفى بعد الثورة فى بحر الشعب ، وستنقب السلطة فى كل ركن وكل خرم فى مصر بحثا عنه دون أن تعثر له على أثر !

وسيظهر عبدالله النديم بعد تسع سنوات من هزيمة الثورة ، ولكنه سيظل مرفوع الرأس ، لم تنل منه الهزيمة ، ولم يحطمه الخوف ، بقيت الثورة حية فى نفسه رغم الفرار والضياع والجوع والتشرد ، كأنما شعب مصر قد انصهر كله فى بوتقة شديدة الحرارة ، حتى صار كله فردا واحدا هو عبدالله النديم ، وكأنما اتحدت كل أرواح مصر فصارت روحا واحدة تجسدت فى هذا الشاعر الصعلوك المتشرد الذى سيصير لحقبة طويلة من الزمان هو مندوب مصر فى برلمان الأبدية .

وإذا كان عرابى هو قائد الثورة ، فإن عبدالله النديم هو لسانها وترجمانها ، وهو العود الذى أشعل النار فى كل شىء ، وعندما ركع الجميع ظل النديم منتصبا كالطود ، مرفوع الهامة كالمارد ، ولكن هذه على أية حال كانت نهاية الثورة ، أما البداية فقد كان لها شأن آخر !

وليس فى التاريخ ثورة أتعس حظا من ثورة عرابى ، سماها العامة هوجة عرابى ، وسماها الخديو خيانة عرابى ، وبعض دراويش الماركسية حملوها فوق ما تطيق وحاولوا إخضاعها لمقاييس نظرية ، ووصفوها فى النهاية بأنها انقلاب عسكرى تحول الى أداة فى يد طبقة كبار الملاك ؟! والحقيقة ان ثورة عرابى كانت ثورة شعبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! اشترك فيها الشعب بكل طوائفه وطبقاته ، وقادها فلاح مصرى أصيل سنحت له فرصة فأصبح ضابطا فى الجيش هو أحمد عرابى ، وتصدرها معه باشا مصرى من ملاك الأرض هو سلطان باشا الذى خان الثورة بعد ذلك ، ولكن إنصافا للرجل ينبغى أن نذكر له انه أبلى فى الثورة بلاء حسنا عندما كانت الثورة فى الذروة ، وعندما انتكست انتكس هو الآخر ، و آثر أن ينضم الى الجانب المنتصر ! ولكن كم من الثوار صمد الى النهاية ؟ أو صمد بعد النهاية ؟ وسنرى مع الباشا رجلا من أوباش الناس ، أو هكذا كان تصنيفه فى السلم الاجتماعى وقتذاك . رجلا قاد الثورة فى البداية ، وظل يحملها وحده فى النهاية ومات على دين الثورة فى منفاه ، ذلك هو بطل الأبطال عبدالله النديم ، وسنجد مع هؤلاء الثلاثة باشوات جراكسه ، وضباطا من السودان ، وعمدا من الأرياف وتجار قطن ، وأصحاب مصانع ، وأصحاب دكاكين وحرفيين وصياعا بلا عمل !

ولقد نجحت الثورة وانتصرت ، وحتى عندما حدث التدخل الأجنبى انتصرت ، ودحرت الجيش الانكليزى عند كفر الدوار ، واضطر القائد

البريطانى المكلف بغزو مصر الى الابحار شرقا ودخول مصر من بوابة بورسعيد ، وتحالف الجميع ضد الثورة الوليدة ، وأصدر الباب العالى فرمانا بتكفير عرابى واعتباره خارجا على أصول الدين . وانضم خديو مصر الى جيش الغزاة . ومالت بعض قبائل البدو الى جانب الانكليز وقت احتدام المعركة ، ودارت الدائرة على عرابى لأنه كان يواجه فى لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة ، الجيش البريطانى والباب العالى وخديو مصر والخونة فى الداخل .. وفر عرابى بعد الهزيمة وتبعثر جيشه الى فلول ، وسلم نفسه الى جلاديه ، واقتحم عليه زنزانته فى المساء واحد من أراذل الناس ، ويصق فى وجهه وسبه ولعن أباه ، وقال له شامتا : « يا عرابى يا ابن الكلب تسب مقام الخديو وتخرج عن طاعته وأنت لا تساوى كلبا من كلاب افندينا » ! وجرت المحاكمة كما أراد لها الخديو أن تجرى . وانهار عدد من زعماء الثورة وثبت رجال عاديون ، وصرخ عمدة من الريف فى وجه القاضى مفندا التهم الموجهة اليه ، وأقسم بكل المقدسات انه لم يرتكب شيئا من ذلك كله ، ولكنه سيفعل ذلك وأكثر من ذلك إذا عاد الزمان القهقرى ونشبت الثورة من جديد ! وانتهت الثورة بهزيمة كاملة ، تدلى الشرفاء من حبال المشانق ، وتربع الخونة على كراسى الحكم ! واختفى عبدالله النديم فى زحام الناس ، واختفى عرابى وسامى البارودى وعبدالعال حلمى وغيرهم وراء المحيطة فى منفى بائس ، يبعد عشرة آلاف كيلو متر عن أرض الوطن ! وعادت ريما الى عادتها القديمة ، عادت مصر مجرد بقرة حلوب يحلب ضرعها الخديو والانكليز والخونة ، وتبارى الكل فى نهبها وتدمير روحها. وتسابق الأرزقية فى سب عرابى وتلطيخ سيرته ودمغ الثورة بالتهور وقلة العقل . وظن الجميع أن الدنيا دانت لهم . وأن مصر قد طابت للآكلين !

ولكن لم يمض ربع قرن على هزيمة الثورة حتى قامت تتثاءب من جديد . وتنفض عنها آثار النوم . وهذا التثاؤب لم يلبث أن أصبح دويا وله زئير ، وكان ممثل الشعب هذه المرة فتى من الطبقة المتوسطة من القاهرة ، نحيل العود ، قوى العزيمة ، قصير العمر ، هو مصطفى كامل باشا ، وكانت المناسبة حمامة وعسكريا انجليزيا أصابته ضربة شمس . ودخلت دنشواى التاريخ كمحطة صغيرة فى طريق استقلال مصر . وعادت من جديد لعبة فرنسا وانكلترا ، ووجد مصطفى كامل فى فرنسا حليفا تاريخيا وتقليديا ضد نفوذ الانكليز وخضوع الخديو لهم ، واستطاع مصطفى كامل الذى كانت المحاماة مهنته أن يفتح أعين المصريين على حقيقة الأوضاع فى البلاد . وعادت الروح التى ظن الأعداء انها ماتت ، وانتشرت الندوات فى

أرجاء مصر ، على مصاطب الفلاحين ، فى القرى ، وعلى الأرض فى حارات المدن ، وفى الصالونات فى قصور الأغنياء ، ونهضت مصر من جديد تبحث عن نفسها ، وكانت صرخة مصطفى باشا « مصر للمصريين » لا يقصد بها عزل مصر عن العرب كما يزعم بعض خونة هذا الزمان ! ولكنه كان يعنى بها أن مصر للمصريين ، ليست للخديو ولا للانكليز ولا للعثمانيين ! ولكن رمز الثورة الجديدة ، مصطفى كامل ، سرعان ما سقط مريضا بالسل ، ولم يلبث أن فارق الحياة ، تاركا خلفه شعبا بدأ يستيقظ ، ومشروع ثورة لم تتم !

ولكن ، أيا كان الأمر فقد نجح مصطفى كامل فى تحريك النار التى خمدت ، وفى تفتيح أعين المصريين على حقيقة ما آلت اليه الأحوال من خراب وفساد وعفن ، وحفظ الناس خطبه كأنها تنزيل من التنزيل ، مقالاته فى الصحف راحت تتلى كأناشيد مقدسة ، وهبت مصر كلها تبغى الثأر لشهدائها وأبطالها ، وبرز اسم عرابى من جديد من جوف الزمن كبطل شعبى وليس كخائن كما حاول الخونة أن يدمغوه !

وكان مصطفى كامل ، بحق هو بداية البعث الجديد ! لقد بدأ سباق التتابع فى مباراة مصر الثورة ، ولقد حمل الراية محمد فريد ، وبدأ العدو فى ساحة الوطن .

وكان محمد فريد ابنا من أبناء البيوتات المصرية العريقة .. هذه البيوتات نفسها التى يؤمن بها المؤمن فى الوقت الحاضر ويرى خلاص مصر على يديها ! وإذا كان هناك بعض العذر لمحمد فريد لأنه جاء فى وقت مبكر من هذا القرن . فما عذر المؤمن وهو يخطط للقرن الحادى والعشرين ؟ ولعل عدم ايمان محمد فريد بدور الجماهير وعدم ثقته فيها هما اللذان دفعاه الى الهروب من مصر فى وقت كانت مصر فى أشد الحاجة اليه للبقاء داخلها . ومن منفاه راح يقود الثورة ، ولكنها لم تتعد قط أسوار الجرائد والندوات والمحافل العلمية ، ومهما يكن الرأى فى محمد فريد ، فإنه والحق يقال أدى دوره حتى النهاية وقاتل حتى جاد بآخر أنفاسه ، ومات غريبا عن الوطن ، بعيدا عن الأهل والخلان ! وترك وراءه حزبا مهيض الجناح ، سيظل بعد ذلك يعمل على هامش الحركة الوطنية ، وسيبقى بعيدا عن حركة الجماهير ، وفى معزل عن أنفاسها ! وإن ضم بين جناحيه فى كل الأوقات رجالا من ذوى الوطنية الصادقة والنوايا الطيبة !

وكان القدر يدخر لمصر فلاحا آخر مثل عرابى سيقود شعبه فى واحدة من أعظم حركات التحرير فى عصرنا الحاضر ، كان فلاحا من قلب الريف .

ومدنيا مارس مهنا شتى قبل أن يتعاطى مهنة المحاماة ويستقر عليها وكأنما كان القدر يدربه ويعده ليكون محامى الشعب فى برلمان الأبدية ، ولسان حاله فى محكمة التاريخ ! كان سعد زغلول عاشقا للجماهير من الطراز الاول كان مؤمنا ايمانا لا حد له بحركة الجماهير ودورها . وبأنه لا طريق ولا حل إلا بها ومن خلالها ! ولذلك اتجه الى الشارع مباشرة وخاطبه بدون واسطة . وانتشرت ثورة ١٩١٩ بين الناس كالنار فى الهشيم . وانطلقت الجماهير كالسيل من حوارى القاهرة ، وخرجت من أعماق الريف ومن جوف الصحارى تهتف للزعيم البطل ! ورفعت الجماهير زعيمها الى مصاف الآلهة . وانصهر الشعب كله فى بوتقة الثورة ، وعادت للأزهر أيامه المجيدة السابقة ، وطغت طبقة الأفندية على سطح المجتمع . وأخرج تجار المدن وأثرياء الريف كل ما فى خزائنهم وتبرعوا به للثورة .

وانقضت السلطة البريطانية على سعد ورفاقه ونفتهم فى بداية الأمر الى مالطا . ولكن الثورة لم تتوقف . بل ازدادت عنفا وضراوة ، واندفعت الجماهير العزل من السلاح تواجه رصاص الانكليز بصدور مفتوحة . وراح الفلاحون بوسائل بدائية يفجرون خطوط السكك الحديدية ، ويقطعون أسلاك البرق ويخفون المحاصيل حتى لا تقع فى أيدى رجال السلطة . وخرجت نساء مصر لأول مرة محجبات يهتفن بحياة سعد زغلول ونالهن من رصاص الانكليز ما نال الرجال . وحتى الصبية اشتركوا فى الثورة ولقى عدد منهم حتفه ، حتى النشالون اشتركوا فى الثورة وكفوا عن نشل الناس . وترددت صرخات الناس : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » وتعالت صرخات طلبة الأزهر : « مصر والسودان لنا ، وانجلترا إن أمكنا ».

ها هو الشعب الذى أغفى فترة ، هب فجأة وهجر الحشاشون حلقات الحشيش ، وترك الشيالون أعمالهم ، ترك التلاميذ حجرات الدراسة ، وانتظم الشعب فى طابور واحد يغنى : « بلادى بلادى بلادى » ورفرفت روح عبدالله النديم على مواكب الشعب الثائر ، ولم يعد فى مصر حارة أو قرية إلا وفقدت عزيزا أو أكثر وتحولت جنازات الشهداء الى مواكب للثورة .. وسعد زغلول مشرد من منفى الى منفى ، ومن معتقل الى آخر . وها هى مصر كلها تزحف ولا سبيل الى وقفها على الاطلاق .

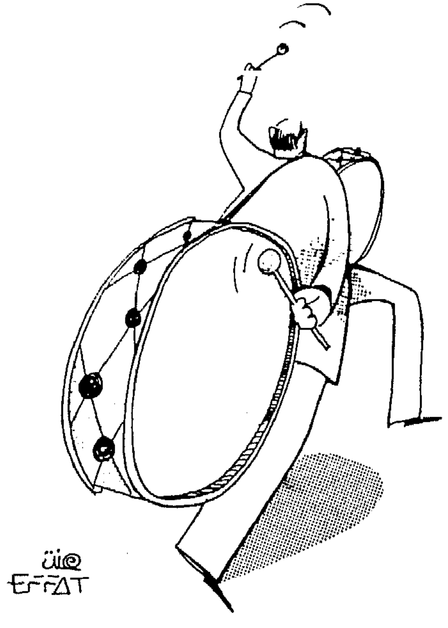
واندلعت شرارة الثورة وامتدت الى خارج البلاد ، ووصلت الى عقر دار الانجليز ، وارتفعت بعض الأصوات الحرة داخل الامبراطورية تنادى بوقف المذبحة ، واضطرت حكومة بريطانيا المتغطرسة الى تأليف لجنة

للنظر فى « أصول محمية مصر والتفكير فى حل للخروج من الأزمة »!

وهكذا وصلت لجنة ملنر الى مصر ، ولكنها لم تجد إلا الاصرار على الثورة ، ومع الاصرار والعزم . لم تقابل فى أنحاء مصر إلا بالمقاطعة .. والصمت .. والاهانة أحيانا . فقد بصق فلاح من قرية سنتريس على وجه أحد أعضاء اللجنة عندما حاول أن ينتحى به جانبا ويسأله بعض الأسئلة . وقال الفلاح غاضبا وهو يسرع بعيدا .. « اذهب واسأل سعد »!!

وعادت اللجنة الى لندن .. بخفى حنين !

□ ■ □



الفصل الرابع عشر

لا جدية ولا عجلة

ولم تكن ثورة ١٩١٩ بعثا لمصر سياسيا فقط . ولكنها كانت بعثا لمصر فى كل مجال . تفجرت العبقرية المصرية واينعت وأنجبت عشرات من الخالدين فى كل فن ، وانشق قلب الشعب عن ملحن عظيم هو سيد درويش ، غنى أمال الناس والأمهم . واشترك فى الثورة ، وكان لحنه هو نشيد الثورة ، واختصر حياته فى خمس سنوات مجيدة هى كل عمره الفنى ، وودع الدنيا بعد ما حفر اسمه فى سجل الزمان . وقد بدأ الشيخ سيد درويش حياته عامل بناء ، ثم احترف قراءة القرآن ، ثم اشتغل بالموسيقى والألحان ، وادركته الثورة ، فألقى بنفسه فى بحرها ، واشتغل فيها بعنف وبلا رحمة . وخرجت جموع الشعب تردد الحانه ، ولم يلبث ان سقط ميتا ، وشيعت جنازته فى يوم عودة الزعيم سعد زغلول من المنفى ، والتقى سيد درويش عبقريا أخر من نوع نادر ، هو بيرم التونسى . كان مؤلفا وزجالا وصحفيا . وكان والده تونسيا هاجر الى مصر واستقر فى الاسكندرية . تزوج من فتاة مصرية ، كان أخوها هو شيخ طائفة العربجية بالثغر . ومن هذا العصير العربى خرج بيرم التونسى يحمل أمال وطنه الأكبر . ويرى ان الأمل يكمن فى صلاح رأس الأمة مصر . ولقد بدأ حياته هو الآخر عاملا فى محل زيات بالاسكندرية . ولكنه سرعان ما هجر المحل لينغمس مع الجماهير يشاركها افراحها وأحزانها .. واكتشف أن الصحافة هى خير منبر لمخاطبة البسطاء من الناس . بلغة هو الذى اخترعها وأجادها وبرع فيها . وراح يصدر الصحف واحدة بعد الأخرى ويحررها بمجهود فردى ، والسلطة تلاحقه

وتصادر صحفه وتلغى رخصته . ولكنه لا يكل ولا يتوقف ، واذا كانت الصحف تحتاج إلى ترخيص من الحكومة فليلجأ الى وسيلة أخرى لتحقيق أغراضه . وبالفعل أصدر مطبوعة غير دورية وسماها (المسلة لا جريدة ولا مجلة) وهكذا أصبح بيرم التونسى غير ملزم باستصدار تصريح من الحكومة . لأنه يصدر المسلة التى هى لا جريدة ولا مجلة . وتلجأ السلطة الى الفتوات لارهاب بيرم التونسى . ويلجأ هو الى حيلة اخرى ويحصل على الحماية الفرنسية . باعتباره من أصل تونسى . وحظ بيرم التونسى النكد أنه سبقه فى التاريخ واحد من صنفه . قاد الجماهير فى ثورة عرابى ، هو عبدالله النديم ، ولم تكن السلطة على استعداد للسماح بتكرار التجربة . فهذا الصنف من الرجال أخطر عليها من قادة الجيوش المحاربة . وانتهزت السلطة فرصة زجل لبيرم التونسى سب فيه السلطان فؤاد سبا مقذعا ، فسارعت الى نفيه خارج البلاد ، باعتباره اجنبيا من تونس ، وحظ بيرم التونسى حسن لأنه كان يتمتع بالحماية الفرنسية ، ولولا هذا لعلقته السلطة فى حبل المشنقة ووارته التراب ، باعتباره مواطنا خرج على حدود الأدب ، وارتكب تهمة العيب ، وهى التهمة التى يوجهها الحاكم دائما لكل من يخالفه رأيه ! كان الزجل الذى تسبب فى نفى بيرم التونسى بصدد العلاقة المشبوهة بين سلطان مصر فؤاد . الذى اصبح ملكا فيما بعد زوجته السيدة نازلى .

« وياسابق الغليون وقلبك حامى / اطلع على القبة وسوق قدامى / تلقى العروسة شبه محمل شامى / وابوها يشبه فى الشوارب عنتر » .

غير ان هذا الزجل لم يكن هو السبب الحقيقى على أية حال . كان هناك سبب أخر ، هو التفات بيرم التونسى الى مشكلة مصر الحقيقية ، وقد كان رائدا فى هذا المجال . فبينما كانت مشكلة مصر فى رأى الجميع مشكلة وطنية ، رأى هو بعينه الثاقبة أن المشكلة اجتماعية فى المقام الأول . وان إخراج الانجليز من مصر ، وان كان هدفا ، الا انه ليس غاية فى حد ذاته . ولكن الطريق الوحيد لاعادة بناء مصر هو اعادة توزيع الثروة !

لقد كانت لفتة عبقرية ، ولكنها جاءت فى وقت مبكر . وربما كان بيرم التونسى وحده هو الذى سار وسط الجموع يرفع هذا الشعار !

كانت التفاتة بيرم التونسى العبقرية هى سبب نفيه . فقد رأى أمة مصر الحقيقية فى تفاوت مستوى المعيشة بين الناس . وبينما كان يزداد البعض تخمة ، كان الآخرون يبحثون عن طعامهم وسط اكوام القمامة .. كالكلاب !

وكان الخواجات هم اكثر الناس حظا فى الثورة واقلهم جهدا فى خدمة البلاد ، مالطيون وقبارصة وأروام وأرمن وجركس يملكون الملايين وابناء البلد ليس معهم الا الستر والصبر !

وانطلق بيرم التونسى يندد بالاوضاع المقلوبة و .. « القطن برضه لمزراحى ولقرداحى / وابن البلد قاعد ماحى / فى بلاده يتيم / أقطانه هو اللى زرعها / واللى جمعها ويوم ماباعها / ماجبتله حق البرسيم / بنايوتى يقبض ويحصل / .. وده بيوصل / ويجرى دايما ما يحصل / ولا حتى بهيم » !

وعلى هذا الدرب سار بيرم التونسى يضرب على الحديد الساخن قبل ان يبرد . انه نديم اخر بدأ يتحرك ولابد من قطع لسانه . وبالفعل ، خرج بيرم منفيا وضاع فى منفاه عشرين عاما كاملة ، واذا كان ثوار ١٩١٩ قد تولوا السلطة وجلسوا بعد الثورة فى مقاعد الحكام ، فإن بيرم التونسى قد فقد كل شىء ، حتى حقه فى العودة للوطن !

ولم يكن بيرم التونسى هو العبقرى الوحيد الذى انجبته ثورة ١٩١٩ . كان هناك عشرات من العباقرة فى كل فن . كان هناك أحمد شوقى الشاعر ، وحافظ ابراهيم . وخليل مطران شاعر من بر الشام يعيش فى مصر ، ونجيب الريحانى عبقرى من الموصل عاش على ضفاف النيل . وفى الأدب كان هناك طه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين . وفى الرقص كانت هناك بديعة مصابنى . وفى المنولوج كان حسن فايق ومحمد عبدالقدوس . وفى الغناء كان صالح عبدالحى والشيخ محمود صبح والشيخ أمين حسنين و .. محمد عبدالوهاب ! وفى فن تلاوة القرآن كانت تتصاعد فى أجواء مصر عشرات من الأصوات العبقرية ، على رأسها صوت الشيخ محمد رفعت . أعظم من شهدت دولة التلاوة على مر الزمان ، وكان الى جانبه عشرات من العباقرة ، الشيخ محمد سلامة والشيخ الفيشاوى والشيخ القهاوى والشيخ منصور بدار والشيخة منيرة العدلية والشيخ عبدالفتاح الشعشاعى والشيخ محمد الصيفى ، ثم عبقرى التواشيح والانشاد الدينى الشيخ على محمود .

وفى عالم النكتة والسخرية شهدت مصر فى تلك الفترة أعظم من أطلقوا النكتة واستخدموها كسلاح . جيل كامل من الساخرين العظام . لو وجد أى منهم فرصة طيبة لاحتل مكانة برناردشو ومارك توين وأوسكار وايلد . وكان على رأس هؤلاء الشيخ عبدالعزيز البشرى وكان يجيد السخرية قولا وكتابة . وحافظ ابراهيم الشاعر الذى كان شديد الكآبة عندما يكتب ، شديد السخرية عندما يتحدث ، وكان هناك إمام العبد وحسين الترزى ،

أبطال المضحكخانة الكبرى التى كانت بؤرة من بؤر الثورة ، وكان أحد مراكز المعارضة القوية ضد الاحتلال الغاشم والحكم المستبد . وكانت المضحكخانة الكبرى هى اسم اشهر مقهى فى ذلك الزمان . وكانت تقوم فى ميدان باب الخلق فى نفس المكان الذى تحتله الآن مديرية امن القاهرة ، وكان يتردد على المقهى كل ليلة عشرات من عباقرة النكتة وعشرات أخرون من كبار الفنانين . وعلى رأسهم الشيخ أمين المهدى أعظم عازف عود فى تاريخ مصر الحديث ، والدكتور محجوب ثابت أحد معالم مصر فى ذلك الزمان . وكانت مهمة أهل النكتة هى الدخول فى قافية يختارون لها موضوعا واحدا كل ليلة وكانت فرصة لسلخ جلود ضباط جيش الاحتلال وباشاوات مصر الضالعين مع المستعمر ، ورجال السياسة الذين يعارضون زعيم البلاد سعد . وكان أبطال هذه الليالى هم الترزى ، والعبد ، ورجلا أخر كان من طبقة الأسياد ، طبقة التجار واصحاب الطين ، ولكنه كان بحق اكبر ساخر فى زمانه ! عيبه الوحيد انه لم يدخل فى زحام الناس ولم يرتبط بقضية . هذا هو محمد البابلى ، أعظم من قال النكتة على طول الزمان ! .

كان محمد البابلى فريدا فى شلة الساخرين ! كان أبوه شيخ تجار الجواهر فى مصر ، ولذلك جاءت نكاته لامعة كالذهب ، وهو نفسه كان يعمل ضابطا للشرطة ، وهى مهنة تحتاج الى وقار لا يتفق مع هواية السخرية والتنكيت ! ولذلك سرعان ما هجر محمد البابلى الشرطة وخلع البدلة الرسمية وتفرغ فى المضحكخانة الكبرى ، يصارع أشهر أصحاب النكتة ويصرعهم جميعا ! وكان العبد واحدا من هؤلاء المشاهير أسود اللون . ورآه محمد البابلى ذات ليلة وكان يرتدى بدلة بيضاء وقد لوثتها بقعة حبر كبيرة ، فقال له : « يظهر أنك عرقت ع البدلة » ! !

وكان حسين الترزى واحدا من هؤلاء المشاهير ، وفى يوم ما كان اشهر خياط لملابس الرجال ، ثم هجر المهنة وتفرغ لسهر الليالى الملاح . وتدهورت أحواله المالية . وعكف على شرب الخمر لايفيق وذات مساء رفع كأسه فى وجه محمد البابلى وصاح فى نشوة : شوف الخمرة لونها ياقوتى ازاى ؟ ورد عليه البابلى : أيوه النهاردة ياقوتى ، وبكره يا .. قوتى !! ياقوتى الأولى من اللون ، وياقوتى الأخرى من القوت ! وكان صاحب جريدة « الصاعقة » ساخرا هو الآخر ، وشرسا فى الوقت نفسه ، قام ذات مساء فغسل وجهه وبحث عن منشفة ليجفف وجهه ، وصاح البابلى : « يا صاعقة وشك مش عاوز تنشيف ، عاوز تنفيض » !

وهكذا كانت الحياة تمضى بمحمد البابلى هانئة ناعمة مستريحة !

وفجأة هبت رياح الثورة فاقتلعت كل شىء ، واجتاحت الثورة قهوة المضحكخانة الكبرى ، وألقى عباقرة النكتة بأنفسهم فى بحر الثورة ، وكان من المستحيل أن يتخلف إمام النكتة وسيدها محمدد البابلى ! وانبرى يؤلف النكت الحادة ضد لواء انجليزى ضربه المصريون فبكى .وعلق محمد البابلى على الحادث قائلا : « شوفته الانجليزى اللى واء واء واء » !!

وكان العساكر الانجليز يبيعون السلاح للمصريين ويدعون ان المتظاهرين خطفوا السلاح منهم . وجاء محمد البابلى الى القهوة ذات مساء ومعه مسدس ، فسألوه : من أين ؟ فأجاب : « دنا خطفته من واحد انجليزى بعشرة جنيه » !!

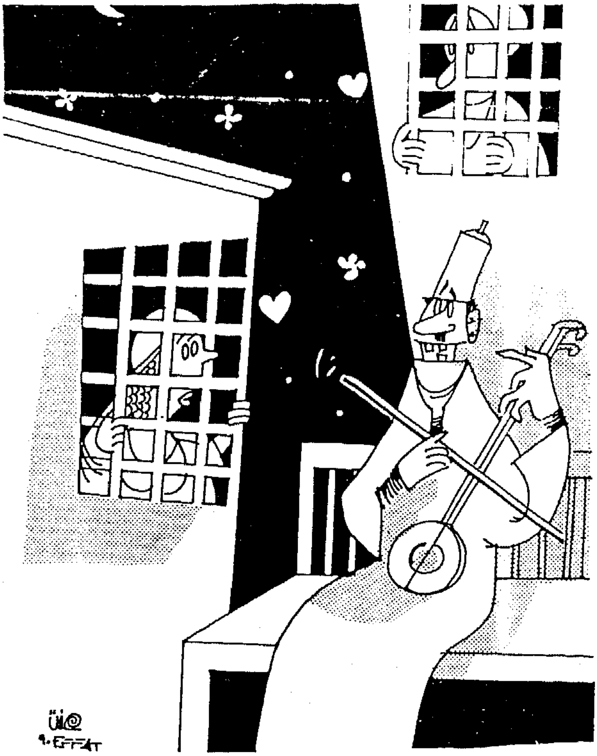
وكان احد الحاضرين فى المقهى يقرأ الجريدة بصوت عال ، ويركز على خبر جاء فيه عن وصول قطعة من الأسطول البريطانى الى مياه الاسكندرية ، فأشار البابلى الى رجل ذى شارب كث كان يدخن الحشيش وينفخ دخانا كثيفا من فمه وأنفه ، وقال : « وأيه يعنى ؟ ماحنا معانا هنا قطعة من المسطول المصرى » !!

واشتهرت نكت محمد البابلى وانتشرت بين الناس . وأصبح البابلى خطرا على سلطة الاحتلال فسحبوه هو الأخر الى السجن ، وتكرر سجن محمد البابلى ، فلا يكاد يخرج من السجن حتى يذهب الى سجن أخر ، وهتف محمد البابلى ذات مساء : « ياسلام ع الواحد بقى اخر استقامة ، من القهوة للسجن . ومن السجن للقهوة » !!

وانتهت الثورة وخرج محمد البابلى منها صفر اليدين ، فهو مجرد ضابط شرطة متقاعد ، ثم هو أفلس أيضا لأنه أهمل ادارة أملاكه فصارت الى بوار ! وكانت الناس لاتزال منقسمة على بعضها حول سعد وعدلى . وكانوا يطلقون على انصار سعد كلمة سعدست ، وعلى انصار عدلى كلمة عدلست ، وسأله بعضهم بعد أن أصبح الثوار فى السلطة : انت عدلست ولاسعدست ؟ وأجاب البابلى فى مرارة : أنا فلست !! ما أعمقها من نكتة ، ويحضر حفلا يغنى فيه أغنية « أهل الملاح والسماح فين أراضيهم » ؟ ويجيب البابلى ساخرا : فى البنك العقارى . كانت أراضيه مرهونة فى البنك .

لقد انتهت الثورة . وعاد رجال النكتة يجترون مأسيهم فى صمت !؟

□ □ □



الفصل الخامس عشر

وجاء الحنجورى

واذا كنا قد تحدثنا عن صحوة مصر الكبرى خلال ثورة ١٩١٩ . واستعرضنا دور المقرئين والمنكتين والمطربين والأدباء ، فإن ثمة ظاهرة ملفتة للنظر قد حدثت خلال الثورة هى ظاهرة لغز الحاج مصطفى ! والحاج مصطفى مصرى فلاح لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه استطاع التأثير فى وجدان المصريين كما لم يستطع أحد من أبناء جيله حتى أعظم الأدباء !

ولقد نشأ الحاج مصطفى فى قرية المرج ، وكان ظهوره قبل نشوب الثورة بقليل . وخرج على الناس بموال من تأليفه هو موال حسن ونعيمة ، بهربه الناس وشغلهم عن كل ما عداه . ثم تبع ذلك بموال مسعود ووجيدة ورشدى وإنصاف . ثم أدركه لهيب الثورة الذى كان كامنا تحت الرماد فخرج على الناس بموال عن مأساة دنشواى ووقفة زهران وكفاح مصطفى كامل .

ولأول مرة يتغنى الفلاحون بالبطل زهران . هذا الفتى الفلاح الذى صورته جرائد السلطة على انه مجرم خارج على القانون . واذا بالحاج مصطفى يقلب الصورة فى اذهان الناس فيجعل منه بطلا شعبيا مات من أجل مبدأ ودفاعا عن قضيته .

« ويوم شنق زهران كان صعب وقفاته / امه وابوه فوق السطوح همه واخواته / اللى انشنق شنقوه / واللى انجلد جلدوه / واللى نجا فى السجن ورموه / وزهران سبع ما انحنت هاماته / طلع المشنقة ما بكى ولا اشتكى / صرخ فيهم كنسر فى الجو فارد جناحاته / وقال لعشماوى شد الحبل انا رايح / صعد زهران للسما وبانت كراماته » .

واشتهر الحاج مصطفى وراح يتنقل بمواويله عبر الحقول بين الفلاحين . وخلال الدروب والأزقة مع اولاد البلد فى القاهرة . واصبح الحاج مصطفى خطرا على الانكليز . وضايقوه بملاحقاتهم واستجواباتهم . ولكنه يدعى دائما انه مجرد مغنواتى وأنه يقول ما لايفهم ، فهو لايعرف القراءة والكتابة !

وتتوالى مواويل الحاج مصطفى كطلقات المدفع الرشاش . وتشعل النار فى جموع الناس بأكثر مما تصنعه مقالات الكتاب . وقصائد الشعراء . وخطب الزعيم . ويفتش الحاج مصطفى عن أحداث مصر فى الماضى .

ويلتقط قصة لولد مصرى اصيل حارب الحكومة ووقف فى وجهها وصمد امام أجهزتها حتى سقط قتيلا فى النهاية . وياميت ندامة على سبع شرقاوى / الاسم أدهم لكن النقب شرقاوى / ومنين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه / شبه المؤيد اذا حفظ الكلام وتلوه . انه مع كل ثائر ومع كل متمرد وفى صف كل خارج على سلطة الدولة . وتمتد يد السلطة وتقبض عليه . ويغيب الحاج مصطفى خلف الأسوار زمنا . ولكن غيابه لم يلفت نظر صالونات القاهرة أو « الرأى العام » السابح فوق السطح . ثم تفرج عنه مع من افرجت عنه من الثوار . ويعود الحاج مصطفى ليرثى للناس سعد زغلول . وياغاوى فن الشعب اسمع كلام غاية / قصة زعيم البلاد من مبتدى لنهاية !

ويمتد عمر الحاج مصطفى ويعيش حتى يشهد ثورة ٢٣ يوليو . ويعيش أكثر ليشهد هزيمة ١٩٦٧ . ويرى ما كتبه والفه وقد اصبح نهبا للاذاعة والتليفزيون وكل الأرزقية . والمهلبتية بعد أن أدرجوه تحت يافطة الفولكلور ! ويصرخ الرجل ولامجيب . ويموت قهرا وقد بلغ التسعين . وقبل ان يلفظ انفاسه كانت كلمات اخر مواويله تتناثر على شفتيه وكان عن هزيمة ١٩٦٧ .

كسرة عرابى لظاها فى الحشا مكتوم / والس عليه الانجليز وسرهم معلوم / لكن اللى حاصل فى دى الأيام ما هو معلوم / ياحسرة النفس لما انكسر جيش مصر من تانى / ارحل بعيد عنكم وكلام على لسانى / ياناصر الحق أرفع سيفك الجبار / واضرب ما ترحم كدابين وجبان / والرب ينصر عبيده لو يعدلوا الميزان ! وذهب الحاج مصطفى دون كلمة رثاء !

وهكذا انتهت ثورة ١٩١٩ ووصل الثوار الى مواقع السلطة . ومهما قيل ويقال عن ثورة ١٩ . فانها فى الحقيقة حققت لمصر انجازات عظيمة ودفعت بها للامام على طريق التقدم والاستقلال . واستطاعت الكشف عن مواهب

مصر الحقيقية . واطلقت الطاقات التى كانت كامنة تحت السطح . فخرج طلعت حرب بمشروعه الاقتصادى الوطنى الكبير . وسيذكر التاريخ لطلعت حرب أنه لعب دورا فى تاريخ مصر لا يقل أهمية عن دور سعد زغلول . وقام بنك مصر كأول مؤسسة مالية مصرية صميمة . وتتابعت الشركات المصرية فى كل مجال وفى كل صناعة . وأصبح لمصر صحافة مقروءة . وقضاء شامخ وقضاة ستحفر اسماؤهم فى سجل مصر بحروف من نور !

وسيتحول سعد زغلول من زعيم للثورة الى رئيس للوزراء . وسيثبت انه اهل للمنصب كما كان أهلا للقيادة . وسيلغى بجرة قلم استخدام اللغة الانجليزية فى المدارس ، وسيقوم بتعريب التدريس ، وهى أهم خطوة اتخذتها ثورة ١٩ بعد ان تحولت الى دولة . وسيحاول أن يقيم دولة المؤسسات فى مجتمع قبلى مستعمر . وسيكافح طويلا لتحجيم الملك فؤاد وتقييد سلطة الملكية . وكان سعد هو زعيم الأمة بلا منازع ، وكان من المفروض ان تتبعه كل الأمة ، وان تمضى خلفه . ولكن بعض الفئات المصابة بالعمى السياسى ، أخذت على عاتقها مهمة شق الصف الوطنى ، وأعماها غرورها فقررت أن تقف فى وجه الزعيم ، هكذا كان مسلك الحزب الشيوعى المصرى الذى تأسس فى عام ١٩٢٤ . وبعد نجاح ثورة اكتوبر فى موسكو عام ١٩١٧ . والذى كان من أهم حسناته انه قام تحت قيادة مصرية وبكوادر مصرية . وهو فى هذا يختلف كل الاختلاف عن الحزب الشيوعى المصرى الجديد . الذى قام فى بداية الأربعينيات ، والذى أسسته حفنة من اليهود . بعضهم لاشك فى ارتباطه بالحركة الصهيونية . وكذلك . فانه يمكن القول الآن ان قيادات حزب ١٩٢٤لم تكن عميلة ولم تكن مرتبطة بحركة أجنبية ولكنهم كانوا فى الغالب وطنيين اخطأوا التحليل ! وعلى عادة الشيوعيين فى مصر قديما وحديثا . فقد استهوتهم العبارات المصكوكة ، والالفاظ الخنفشاوية . فاتهموا حكومة سعد زغلول . وهى المدعومة بأغلبية ساحقة من شعب مصر ، بأنها حكومة « الطبقة البورجوازية المتعاونة مع الاستعمار الاجنبى لتحقيق مصالح طبقية وكمبرادورية على حساب مصالح الشعب » !! وقالوا ايضا ان حكومة سعد زغلول تضم « ممثلين للشرائح العليا من اصحاب الأرض ورجال المصارف وكبار التجار الذين يطمعون فى الاحلال محل الاجنبى واطلاق يدهم فى امتصاص دم الشعب » !

□ ■ □

ودعا الحزب الشيوعى « الطبقة العاملة » المصرية الى الانقضاض على سعد زغلول وحزب الوفد وازاحته من الحكم واحلال ممثلى الطبقة الكادحة مكان هؤلاء الذين ركبوا موجة الثورة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولم يكن هناك اكثر سذاجة من هذا الكلام . فأولا ، لم يكن فى مصر طبقة عاملة بعد ، وثانيا لم يكن بين الشعب المصرى عدا عشرات قليلة قد سمعت بالشيوعية . فما بالك بممثلى الطبقة الكادحة هؤلاء ؟ ! ثالثا لم يكن هناك زعيم غير سعد ولم يكن هناك حزب غير الوفد ، ولو سألت أهل قرية فى أعماق الريف « من تنتخبون » ؟ لصاحوا جميعا .. سعد !!

وكان خطئا قاتلا أدى الى مأساة ، وهو حتى بالمفهوم الشيوعى خروج على برنامج العمل ، لأن الشيوعى الجيد ينبغى أن يوجد حيث توجد الجماهير . و بينما كانت الجماهير مع سعد وحوله ، اختار الحزب الشيوعى ان يقف فى وجه سعد وضده . وكانت المأساة ، زحفت الجماهير على مقر الحزب فى الاسكندرية واشعلت فيه النار ، وطاردت اعضاءه واعتبرهم الشعب مجموعة من الخونة وعوملوا معاملة الانجليز وأعوان الاستعمار .

وكان درسا بالغا . ولكن المأساة الحقيقية أن احدا لم يستفد منه فمر فى تاريخ مصر كصرخة فى واد !!!!

وهكذا أصبح الثوار فى الحكم وتحولت الثورة الى سلطة ! أفندية الأمس أصبحوا وزراء بالرغم من أنف المعتمد البريطانى وأصبح لمصر أيضا دستور للحريات السياسية هو دستور ٢٣ . وتحول سعد زغلول الى أسطورة . فهو الذى حقق الاستقلال . وهو الذى فرض حكم الجماهير على البشوات والانجليز ! وكانت أخطر حركة تاريخية حققها سعد زغلول هى تعريب التعليم . كان التعليم قبل الثورة بالانجليزية . وأصبح التعليم باللغة العربية ، ولولا هذه الخطوة لأصبحت مصر مثل الهند : مثقفون يتكلمون انجليزية بلهجة اكسفورد . ورعاع يرطنون بلغات غير مفهومة !

وكانت أبرز ميزات سعد اكتشاف وتجنيد وتدريب عشرات من الشبان الذين سيصبح له شأن فيما بعد ، شبان واجهوا مشانق المستعمر دون أن يرمش لهم جفن . أحمد ماهر والنقراشى وسليمان غنام وعبدالسلام جمعة والرجل الذى سيصبح أسطورة وسيخلف سعدا فيما بعد .. مصطفى النحاس . وكان أعظم انجازات سعد زغلول السياسية هو توحيد عنصرى الأمة ، وتحولت المساجد الى محراب للقساوسة . وتحولت الكنائس الى منابر لمشايخ الأزهر . وبرز من أقباط مصر سينوت حنا . وشاب ملتهب

الأعصاب ملتهب الوطنية حار العاطفة هو مكرم عبيد ، ولكن سعد زغلول الذى انتجته الجماهير واجلسته على مقعد الزعامة ، سرعان ما خلعه الانجليز بعد مقتل السير لى ستاك . وراحت السلطة تتعقب الذين اغتالوا الرجل . وتقدم مصريان كشاهدى ملك للمحكمة ، كافاهما الانجليز فيما بعد . احدهما هو عبدالظاهر السمالوطى الذى اشتعل مفتشا فى شركة الترام مكافأة له على خدماته . ثم مات فى الطريق العام بعدما ضربه عمال الترام علقة ساخنة ولم يتركوه حتى لفظ اخر انفاسه ! والاخر هو محمود عزت المفتى الذى احترف الصحافة بعد ذلك ، واصدر مجلة « البعكوكة » التى اضحكت مصر زمنا طويلا . وكان الجاسوس قد هاجر من مصر بعدما ادلى بشهادته وغاب فى الخرطوم سنوات طويلة . حتى نسيه الناس . وعندما عاد الى مصر . عاد باسم اخر !

وراح سعد زغلول يناضل من جديد ضد سلطة السلطان فؤاد الذى اصبح ملكا . وضد نفوذ الانجليز . داعيا فى كل وقت الى الاحتكام للأمة مصدر السلطات .

ولكن القدر لم يمهله طويلا فمات فى عام ١٩٢٧ بعد ما ترك مصر دولة مستقلة بعدما كانت محمية . وبعدما ايقظ الأمة ، ومات بعدما شهدت الاسكندرية أول شريط سينمائى يعرض فى الشرق ، وبعدما انتجت مصر أول افلامها الطويلة وهو فيلم « قبلة فى الصحراء » لبدر لاما .

وعندما مات سعد زغلول كان محمد عبدالوهاب قد بدأ يلمع كمطرب ، وكانت الفلاحة القادمة من الريف قد زحفت على القاهرة وأصبحت نجمة باسم ام كلثوم ! لقد كان سعد زغلول هو النفير الذى ايقظ مصر ، وكان هو الدليل الذى وضعها على الطريق الصحيح .

لقد مات المرشد الآن ، ولكن الأمة بقيت نابضة بالحياة !

كان دستور ٢٣ ، رغم كل شىء ، هى الدرع التى حمت الأمة من عدوان الطغمة الحاكمة . وبالرغم من انه كان ثوبا فضفاضا ، فإنه كان ثوبا على اية حال . وبفضل دستور ٢٣ استطاع كاتب مثل الشيخ عبدالعزيز البشرى ان يصف رئيس وزراء مصر . أحمد زيوار باشا ، بانه والحمار سواء بسواء . كتب الشيخ البشرى يقول : « لو ان زيوار باشا ركب حمارا فلا أحد سوف يحدد من هو الراكب ومن هو المركوب ! وفى مقال اخر اتهم الشيخ البشرى احمد زيوار باشا رئيس وزراء مصر بأنه « لص ومرتش وينبغى ان يحاكم لولا انه سمين للغاية ، ولذلك سيحتار القضاء فى محاكمة زيوار باشا لأنه من الظلم اعتباره كله مسئولا عما اقترفت يداه ، فهل هى

يده المسئولة أم كرشه الذى يطل عدة أمتار الى الأمام ، أم صدره الذى يشبه بطيخة صيفى أصابها التلف ، أم أنفه الذى يشبه الكوز ، أم رأسه الذى يشبه قربة السقا ؟ »

ولكن العجب ليس فيما كتبه الشيخ البشرى . ولكن العجب الحقيقى أن محكمة جنايات مصر حكمت ببراءة الكاتب ، وقالت فى حيثيات حكمها إن من حق الكاتب أن يسخر من رئيس الوزراء . حيث ان رئيس الوزراء شخصية عامة يجوز للمواطنين أن يسخروا منها !!

يا سبحان الله ! لقد تدهور كل شىء فى مصر الأن ، حتى ان احقر موظف عمومى فيها لم يعد يحتمل النقد وصار الكاتب مطاردا كاللص ، وهو مذنب دائما حتى تثبت براءته ! ولكن دستور ٢٣ لم يثبت طويلا ، فسرعان ما أطاحه صدقى باشا ، وكان رجلا متعاليا يكره الجماهير بطبعه ، ديكتاتورا لايحكم الا بالحديد والنار ! كان يطلق على الشعب وصف الرعاع ، وكان يرى الخلاص فى الخضوع للملك والركوع للانجليزى . وجاء بدستور جديد وشكل حزبا هو حزب الشعب ، أشبه بالمغفور له حزب مصر الذى شكله ممدوح سالم ، ومات الحزبان بالسكتة القلبية ، وانزوى صدقى كما انزوى ممدوح بعيدا عن أعين الجماهير !

وقبل صدقى حاول محمد محمود باشا ، وهو صعيدى من قرية ساحل سليم ومن أسرة أرستقراطية عريقة ، أن يحكم مصر حكما مطلقا . ولكن المحاولة فشلت هى الأخرى ، والسبب هو تصدى حزب الوفد للمحاولة بقيادة زعيم مصر الجديد مصطفى النحاس . وكان مصطفى النحاس يؤمن ايمانا لاحد له بالجماهير . وكان يرى الخلاص فى الانصات الى همس الامة وتحقيق رغبات الشعب . وكان رجلا صلبا عنيدا مؤمنا بأن الشعب اقوى من الملك ومن الاستعمار ومن أجهزة السلطة مجتمعة . وفى سبيل الشعب دخل النحاس معارك رهيبة خاضها ضد الملك فؤاد وضد الملك فاروق وضد الأحزاب الرجعية التى شكلها الملك من بعض زعماء الوفد القدامى وحتى بعض محترمى السياسة الذى اكتشفوا ان بقاءهم فى السلطة رهن بمعاداة الجماهير !

تكون الحزب السعدى من فلول حزب الوفد وقام حزب الأحرار الدستوريين على اكتاف أبناء البيوتات الأرستقراطية . ثم دخل الحلبة حزب فاشستى هو حزب مصر الفتاة ، وهو حزب تعاون مع الملك ومع المندوب السامى . وكان هدفه الوحيد هدم الوفد والنيل من زعامة مصطفى النحاس .

ثم بدأ يدخل الساحة حزب أخر جديد . حزب لايحمل هذا الاسم . وان كان اخطر احزاب المرحلة كلها . وقد تكون فى هدوء وعلى مهل وبقيادة رجل عبقرى فى التنظيم هو حسن البنا . وكان هذا هو حزب الاخوان المسلمين .

□ ■ □



الفصل السادس عشر

هتلر المصرى

الى جانب الاخوان المسلمين كان هناك حزب اخر ، انشأ تنظيما عسكريا . واعتمد على إثارة الشارع دون فكر محدد على الاطلاق ، هو حزب مصر الفتاة . وكان يقوده رجل عاطفى النزعة ، يؤيد بلا حدود ويعارض بلا منطق ، وإذا دخل فى عراك مع أحد دمره ، واذا عقد صداقة مع أحد دمره .. ودمر نفسه ! كان مثله الاعلى هتلر وموسولينى وكان الحزب الأمثل عنده هو الحزب النازى . ومن عجب ان هذا الحزب مر عليه شباب الثلاثينيات والاربعينيات كلهم وبلا استثناء حتى جمال عبدالناصر وانور السادات بل انه الحزب المصرى الوحيد من احزاب العصر الملكى الذى سمح له السادات بالعمل ، وقام فى عهده بدور فى المعارضة ويقوده ابراهيم شكرى أحد اقطاب الحزب زمان !

ولقد ضم هذا الحزب من الماضى عشرات من السياسيين الذين احترفوا العمل السياسى وكان الحزب على صلات طيبة بجميع احزاب الاقلية وان اعلن غير ذلك . وارتمى فترة من الوقت فى احضان السراى . ولكنه وقف موقف العداء من كل التنظيمات العمالية والشعبية واعتبر السياسة كهنوتا لايجوز الا للسادة أعضاء حزب مصر الفتاة .

ورغم كل المحاولات التى بذلها الحزب . ورغم التنظيمات الفاشية والاستعراضات العسكرية فان الحزب ظل بعيدا عن احضان الجماهير . ولم يصل من اعضائه الى مجلس النواب والحزب فى ازهى فتراته الا نائب واحد يتيم هو ابراهيم شكرى . واشترك الحزب فى معركة الكفاح المسلح

ضد الانجليز فى عام ١٩٥١ . وقضت السلطة الملكية على جميع اعضاء الحزب ، وقدمت رئيس الحزب احمد حسين للمحاكمة بتهمة حريق القاهرة . ودلت الشواهد كلها على أن الملك مصمم على تصفية الحزب واعدام رئيسه .

ولولا ثورة ٢٣ يوليو لتم كل شيء وسار كما اراد له الملك . الا ان الثورة فاجأت الجميع ، فأفرجت عن أحمد حسين وعن كل المسجونين . وتصور احمد حسين ان الثورة قامت من أجله ، وأنها خرجت من جيبه ، وحاول ان يفرض الوصاية عليها ، لسبب عاطفي غريب ، وهو أن جمال عبدالناصر عندما كان تلميذا فى السادسة عشرة من عمره التحق فترة لاتزيد على شهر فى صفوف مصر الفتاة ، ثم انصرف عنه زاهدا عندما اكتشف ان الحزب ليس مؤهلا للقيادة .

ولكن احمد حسين الذى كان مثله الأعلى الهر هتلر ، اعتبر ان عبدالناصر عضو فى الحزب ، وأن الثورة ينبغى ان ترفعه الى منصب الرئيس وأن تضعه على رأس الثورة .

وعندما وقع الخلاف بين أحمد حسين والثورة . سمحت له الثورة بمغادرة مصر فطاف ببعض بلاد الشرق داعيا الشعب المصرى الى الاطاحة بعبدالناصر والانتفاضة ضد الحكم العسكرى ودعوة « الزعيم المنتظر » أحمد حسين ليقود البلاد نحو الاخاء والرخاء والسعادة !!

ولكن ما حدث كان غير ما توقع الزعيم المنتظر ، عاد بعد فترة الى مصر ، وعاش فى الظل حتى مات عبدالناصر . ثم عاد للظهور فى دولة الانفتاح ، ليقوم بدور محدود للغاية . هو تدبيج مقالات كلها مديح واشادة بعظمة السادات ونبوغ السادات ولكنه فجأة وبلا مقدمات انقلب على الزعيم المنتظر !!

□ □ □

شمشون الاخوان !

كان حسن البنا زعيما من طراز لينين وجمال عبدالناصر ، كان له هدف واحد ومحدد هو السلطة ! وكان يدرك ان السلطة ليست هى تصفيق الجماهير ، ولكنها القبض بقوة على زمام السلطة وتوجيهها فى الطريق الذى يريد .. ولذلك راح يعمل فى صمت وفى دأب خمسة عشر عاما طويلة ، بادئا رحلته الاسطورية من مدينة الاسماعيلية ، وبعد عشرين عاما من بدء الدعوة كان عشرات الألوف من الاتباع والمريدين يدينون بالولاء والطاعة ، وكانوا منتشرين فى طول مصر وعرضها ، ومعبئين داخل تنظيم حديدى لدرجة انه كان اذا عطس فى بورسعيد قال له من فى أسوان .. يرحمك الله !! وكان الرجل داهية فى السياسة لعب أدوارا مع السلطة وأدوارا ضدها . ولكنه حرص دائما على أن يكون فى حدود الشرعية على قدر المستطاع . والا يستدرج الى معركة الا فى الوقت المناسب وفى المكان الذى يحدده بنفسه ! ولذلك سنراه احيانا فى صورة المؤيد للملك ، واحيانا يقف الى جانب صدقى باشا . وفى بعض الاحيان على الحياد بين الجميع ! وانتهز الرجل فرصة حرب فلسطين ليدفع بأعداد لاحصر لها من شباب الاخوان الى خط النار . ليتقنوا فنون الحرب ويتمرسوا على القتال والموت فى سبيل الله . ولكى يتمكن بعد ذلك من تكوين جيش الخلاص الذى سيقوده على طريق الاسلام ليقيم مملكة الله ؟ !

واستفاد الاخوان من حرب فلسطين ، استفادوا خبرات وممارسات وكوادر لاحصر لها من الجنود والقادة ، والمدربين على احدث الاسلحة ، وليس كالحرب مصنعا لتجربة الرجال وتخريج الرجال !!

والحق أقول ان الاخوان المسلمين اثبتوا فى حرب فلسطين قدرتهم الفذة على خوض الحرب ، واستعدادهم الكامل للموت فى سبيل مايؤمنون به ، وكانوا غاية فى الشجاعة والطاعة والانضباط ولكن مأساة حسن البنا أن الشبان الذين دفعهم هو بنفسه الى خط النار ليعدهم لليوم الموعود ، هؤلاء الشبان أنفسهم اكتشفوا فى لهيب المعركة ان المعركة الحقيقية فى القاهرة . وهم فى هذا يتفقون مع الامام ، مع اختلاف بسيط هو انهم اكتشفوا أيضا ان أسلوب البنا ليس هو الاسلوب المناسب ، وان المعركة مع النظام قد حان أوانها ، وان الاسراع فى التنفيذ هو غاية المراد من رب العباد !!

وهكذا بدأت المعركة بين جيش الأخوان والحكومة . وبدأتها الحكومة باستفزازات من جانبها كان حسن البنا يرى عدم الاستجابة لها لأن الموعد الذى حدده لم يحن بعد .

واحتدمت المعركة بين الحكومة والاخوان . والبعض يقول ان كل شىء دار من خلف ظهر الامام والبعض الأخر يؤكد ان كل شىء تم بعلم الامام وبتدبيره .

وأيا كان الأمر . فقد سقط الأخوان فى الطعم ، وبدأوا المعركة قبل الأوان . وتساقط الضحايا من الجانبين . واتسعت الدائرة فشملت رئيس وزراء مصر محمود فهمى النقراشى ، وكان لابد ان يدفع البنا الثمن . وأقدمت الحكومة على استدراجه وقتلته فى الطريق العام وبمسدسات حكومية وقتلة من رجال الأمن العام . وحشر الألوف منهم فى السجون . واضطر بعضهم الى الهروب من مصر . وظهرت قصة العسكرى الأسود لأول مرة فى عام ١٩٤٩ . حين استعانت به الحكومة كآلة تعذيب بشرية لم يعرف لها مثيل على طول التاريخ !

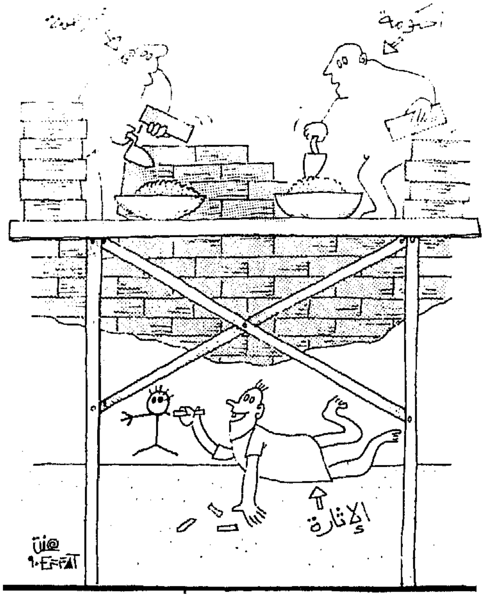
وظن البعض ان صفحة الأخوان المسلمين قد انطوت ، وتصور البعض انها مجرد معركة مثل أحد يأتى بعدها فتح مكة وأنه لفتح مبين ! ولكن المستقبل اثبت انها كانت احدا ، ثم جاءت بعدها أحد اخرى وأخيرة . وكانت النتيجة قصم ظهر الاخوان كحركة ، ودخولها التاريخ كمأساة من مآسى العصر الحديث !

ولكن مأساة الأخوان كانت من نوع فريد . وهو سبب أودى بكثيرين منذ شمشون الجبار والى محمد على باشا الكبير !

وهو درس يتكرر كثيرا دون أن يستفيد منه الا النزر اليسير . وهو درس أشبه بمادة الألعاب الرياضية يمارسها الجميع ثم يتركها الجميع بعد ذلك ! غير أن مأساة الأخوان انهم كرروا التجربة مرتين فى جيل واحد . مثل النرجسية المركبة ، اذ رأى نرجس صورته فى مياه البحيرة فأعجب بها وصام عن الطعام والشراب وغاب عن الوجود متأملا صورته وهامت البحيرة أيضا بنفسها لأنها كانت تتأمل صورتها فى عين نرجس أيضا فى غرام شديد .. حتى مات ، وعندما مات جفت البحيرة وماتت أيضا !!

لقد تضاعفت المأساة .. والسبب واحد !

□ ■ □



الفصل السابع عشر

وعاد الوفد

وهكذا جاء عام ١٩٤٩ ومصر مختنقة ومختلفة وممزقة وحالها حال . حكومات الأقلية تحكم البلاد منذ خمس سنوات ، والوفد مطرود ومنبوذ ومحاصر من السراى ومن الانكليز ومن كل الجهات .

ولكن لحسن حظ مصر ، فقد صور العملاء للملك « الصالح » ان الوفد كحزب قد انتهى وأن الجماهير التى كانت تلتف به قد انفضت من حوله ! وصدق الملك الأكذوبة فدعا الى انتخابات حرة لكى يضع كل انسان فى حجمه ، ولكى يمنح الشعب فرصة القضاء على حزب الوفد ، وجاء حسين سرى باشا ليجرى الانتخابات ومعه صهره محمد هاشم . وتالفت وزارة ائتلافية فى البداية ، ثم لم تلبث الوزارة ان انفرط عقدها وحلت محلها وزارة من بعض المستقلين والمستوزرين والأرزقية . وجرت انتخابات لم تشهد مصر لها مثيلا ، انتخابات حرة بالفعل ، وفى جو من الارهاب النفسى ضد الوفد لم يحدث له مثيل من قبل . انطلقت الجرائد والمجلات الموالية للسراى تهاجم مصطفى النحاس زعيم الوفد وتنهش لحمه وتنهش عرضه ، ثم جاءت النتيجة فى النهاية لتضع كل انسان فى حجمه بالفعل . لقد اكتسح الوفد الانتخابات بأغلبية ساحقة ، وسقط باشوات واصحاب ملايين واصحاب عمارات واطيان أمام أفندية مجهولين ومدرسين فى التعليم الثانوى ومشايخ صغار فى الأزهر . وسقط مرشح الأخوان المسلمين فى الجيزة الاخ مصطفى مؤمن ، ولحق به المرشح الشيوعى الوحيد ، ولم ينجح من حزب مصر الفتاة الا مرشح واحد

نجاحه في الدائرة مضمون بسبب العصبية والعائلة وليس بسبب الأحزاب والمبادىء . وجاء الوفد الى الحكم بعد غيبة طويلة . وجاء معه الرخاء والاستقرار . وجاءت الحرية ايضا .. وانطلقت صحافة المعارضة تكشف كل شيء وتهاجم كل شيء ابتداء من جلالة الملك الصالح والى وزير الداخلية فؤاد سراج الدين باشا .

ولعبت صحف روزاليوسف والجمهور المصرى والاشتراكية والمصرى الى حد ما دورا رهيبا وعظيما في تقويض دعائم النظام الفاسد . واشترك إحسان عبدالقدوس وحلمي سلام في كشف مايسمى بقضية الأسلحة الفاسدة . وهي الأسلحة التي اشتراها الملك وبطانته وسلح بها الجيش المصرى في حرب فلسطين ، والتي كانت السبب الأوحد في هزيمة جيش مصر وطلائعه تقف على أبواب تل أبيب ! وحاول الملك الصالح عندئذ لجم المعارضة ووقفها عند حدها ، وحرك أحد النواب لتقديم مشروع قانون سمي بمشروع حظر أنباء القصر . وهاجت مصر وماجت ووقفت ولم تقعد قط . واستطاع مجلس نواب مصر العظيم في تلك الفترة دحر المشروع الملكي . وخرجت جريدة المصرى يوم التصويت على المشروع بصور الموافقين وقد لطختهم بالسواد !

وفي هذا اليوم المحموم وقف مصطفى النحاس وكان قد تعدى الستين بكثير ليعلن على شعب مصر نبأ إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا العظمى .

وكانت بريطانيا في ذلك الحين لم تزل عظيمة وأسطولها يرهب جميع أقطار الأرض . وجيشها الذى لا يقهر يحتل نصف المعمورة ! « ومن أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أعلن إلغاء المعاهدة » .

وتحولت مصر الى بركان من النار . هدرت الجماهير في الشوارع . وانطلقت الجموع تهاجم معسكرات الانجليز في القناة . ووقف رجال الشرطة موقفا سيظل خالدا في تاريخ مصر . وتكونت الجماعات الفدائية . واشترك في المعركة كل الاحزاب وكل الاتجاهات . ودخل المعركة انتهازيون ولصوص وقطاع طريق . ووقف وزير الداخلية الى جانب الجميع يدعمهم بالاسلاح وبالمال . وسقط الف قتيل مصرى نصفهم من رجال الشرطة ونصفهم من الطلبة والعمال ومختلف طوائف الشعب .

وبدا أن الانكيز في محنة ، وأن الملك في مأزق ، وكان لابد من حل .

□ ■ □

هدية السماء

وكان الحل هو إشعال النار فى القاهرة وقد جاءت الفرصة عندما هجمت دبابات الانجليز على محافظة الاسماعيلية ودكتها دكا . وتصدى لها ألف جندى مصرى من جنود الشرطة بأسلحة قديمة ووسائل بدائية . وكان النصر بالطبع لدبابات السنتريون ومدافع الهاوزر . وسقط فى المعركة نحو مائة شهيد من عساكر الشرطة . ومثلهم من أفراد الشعب . وقتل عشرون جنديا من عساكر الجيش البريطانى أحدهم ضابط برتبة عقيد !

وثارت الجماهير فى القاهرة احتجاجا على المجزرة . واشترك فى المظاهرات الصاخبة مئات من جنود الشرطة بقيادة ضابط برتبة نقيب هو عبدالهادى نجم الدين . ولكن الأيدى القذرة استغلت الفرصة واشعلت النار فى القاهرة من خلف ظهر المتظاهرين ! واكلت النار فيما أكلت فندق شبرد الشهير ملتقى حكام مصر من انجليز ووطنيين ، والتهمت شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) ودمرت قلب المدينة وامتدت النار الى الضواحى حتى وصلت الى حلوان .

وتمت المؤامرة فصولا حين أمر الملك قوات الجيش باحتلال المدينة لحفظ النظام وعندما سيطرت القوات الموالية للملك على العاصمة اصدر قرارا باقالة وزارة مصطفى النحاس باشا ، واستدعى رجل المناسبات الجاهز والمستعد على ماهر باشا ، وبدا أن الأمور قد عادت الى وضعها الطبيعى فى نظر القصر والانجليز !

ولكن على ماهر ارتكب غلطة العمر عندما وقف امام مجلس النواب يقدم حكومته فأشاد بخير خلف مصطفى النحاس . وكانت غلطة لأنه لم يدرك أن حريق القاهرة لم يستهدف أحدا الا مصطفى النحاس ، ولم يكن يهدف الا لازاحة حكومة الوفد وطردها من الميدان ! ولذلك سرعان ما أقيل على ماهر باشا وجاء أحمد نجيب الهلالى باشا لتبدو جميع عورات النظام مكشوفة وبلا شيء يسترها على الاطلاق ! فقد ألف الوزارة من بعض بطانة الملك السابق ، وبعض الموتورين من حزب الوفد . وبدلا من التحرير رفع الهلالى شعار التطهير ولم يكن المقصود به تطهير البلاد من عساكر الاحتلال ، ولكن تطهيرها من حزب الوفد أولا ، ومن الشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين ثانيا ، ومن المشاغبين عموما .. وفى كل حال !

واطبقت سجون مصر على زهرة شباب الأمة وسيق الفدائيون الى المعتقلات بعد تجريدهم من السلاح ، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف القومية ، واطبق الصمت الرهيب على مصر ، وغاص العمل السياسى تحت الأرض ، وعادت مصر من جديد الى دوامة الارهاب ، وانتشر الهمس بين الناس حتى أصبح الهمس لغطا ثم ضجيجا .. واصبح مطلب الجميع سقوط الملك !

ولكن وزارة الهلالى لم تلبث ان ترنحت ثم عادت من جديد ، وبعضوين جديدين اثارا لغطا شديدا بين الجماهير ، كريم ثابت وزيرا للقصر الملكى ، وصهر الملك فاروق وزيرا للحربية ، وكان شابا فى مقتبل العمر ، وزوجا للأمبراطورة السابقة فوزية التى كانت يوما ما امبراطورة وزوجة لشاه إيران ! !

وهكذا أصبح الحكم فى مصر أضحوكة وباتت السلطة فى معزل عن الجماهير ، ووقفت الجماهير بعيدا عن السلطة فى حذر ومترقبة فى غيظ . ولكن لم تمض عدة أيام على قيام الوزارة الجديدة التى كانت تستنشق هواء البحر على شاطىء الاسكندرية حتى فوجىء الناس بقيام أعظم وأمجد حدث فى تاريخ مصر الحديث وهو قيام ثورة ٢٣ يوليو .

وكانت هدية السماء لشعب مصر .

□ ■ □



الفصل الأخير

إلى أين؟

ولم تفاجىء الثورة الجماهير فقط ، ولكنها فاجأت الجميع ، فاجأت الملك الذى كان يثق ثقة مطلقة فى قائده العام محمد حيدر باشا وفى عينه داخل الجيش حسين سرى عامر ، ثم اكتشف الملك فى صباح يوم ٢٣ يوليو ان نصف مخابراته أعضاء فى تنظيم الضباط الأحرار ، وأن النصف الأخر كان مستغرقا فى اللذة حتى النخاع !

واستنجد الملك بالسفير الأمريكى المستر كافرى الذى لم يكن أقل مفاجأة من الملك ومن الجماهير . واستنجد بالجيش الانجليزى الذى كان مرابطا فى القناة .

ولكن لا أحد على ظهر الأرض كان يستطيع انقاذ الملك كان العطب قد دب فى جسم الملكية حتى العظم ، وكان السوس قد نخر فى قوائم النظام ، ولذلك كان الانهيار حتميا . وكان السقوط هو المصير . ولم يصمد الملك أكثر من أربعة أيام . ولم تصمد الملكية أكثر من عدة أشهر ، وسارعت الأحزاب القديمة الى الظهور من جديد . وكان هناك أمل فى حزب الوفد لكى يعود إلى الواجهة من جديد لتحقيق الأحلام التى طالما داعبت خيال الجماهير . ولكن حزب الوفد كان قد تغير . كان حزب البشوات وليس حزب الجماهير . ولذلك كان يبدو فى اليسار عندما كان الملك فى السلطة . أما فى عهد الجيش فقد بدا الوفد أقل ثورية وأقل اندفاعا على طريق العدالة الاجتماعية .

وكان الاصلاح الزراعى هو الصخرة التى تحطمت عليها أمال الجماهير فى عودة الوفد الى الواجهة . وبدا ان العهد القديم قد انطوى بملكه وزعمائه واحزابه وقيمه وأن عهدا جديدا قد أطل على مصر . ولكن هذا العهد الجديد لم يستقر بالفعل ولم يتبلور بالفعل الا بعد ذلك بسنوات .

فقد كان فى السلطة عدد من ضباط الجيش وكان يبدو للجميع انهم مجموعة من الشبان يقودهم رجل عجوز من لواءات الملك السابق هو محمد نجيب . وكان محمد نجيب صاحب الابتسامة الطيبة والتلقائية التى تقترب بشدة من تلقائية مصطفى النحاس ، قد تسلل الى قلوب الجماهير التى كانت متعطشة الى الحرية والعدالة الاجتماعية ، وقد اندفعت الملايين خلف موكبه تحاول لمس يده أو تحظى بكلمة تخرج من فمه . وهذا أيضا شارك فى عملية تغيير محمد نجيب لواء الجيش الذى عاش منضبطا يعانى الوحدة والعزلة والفراغ . فقد تحول فجأة من ضابط جيش الى زعيم ، ومن رجل يتلقى الأوامر الى رجل فى يده كل سلطان . ومحنة أن يتحول رجل من قائد عسكرى الى قائد شعب .. محنة ما لم يكن الرجل مسلحا بنظرية أو منبثقا من صفوف حزب . أو ظاهرة كنابليون وعبدالناصر . ولذلك سيتصرف محمد نجيب بعد ذلك كملك مصر الجديد . وسيتآمر على الثورة التى هو رمزها . وسيحاول الانفراد بالسلطة بمساعدة عناصر من الوفد وبالاتفاق مع قيادة الاخوان والجناح اليسارى من الضباط الأحرار .

وكان عام ١٩٥٤ هو أخطر الأعوام فى تاريخ مصر . وجدت الثورة نفسها فى مأزق . لقد رفع أعداء الشعب شعارا تعشقه الجماهير هو شعار الديمقراطية . وطالبوا بعودة البرلمان والدستور الدائم والسمنى بحرية تشكيل الأحزاب .

واضطرت الثورة الى التراجع أمام إجماع الشعب على العودة الى الديمقراطية بنفس الشكل الذى كان الملك قد أبتكره ولم ينفذه قط .

وانقسم شعب مصر لأول مرة فى تاريخه ، وبدا أن حربا أهلية على الأبواب . وأن الثورة البيضاء فى طريقها لتصطبغ بلون الدم !

وعندما أطل شهر مارس (اذار) ١٩٥٤ كان الاخوان قد أعادوا تنظيم صفوفهم ، وعادت الأحزاب القديمة فتكتلت من جديد وفى هذه المرة نسيت خلافاتها وتجاهلت الفروق بينها واختارت فؤاد سراج الدين قائدا لحركتها الأخيرة والحاسمة . وتحرك الشيوعيون ولكن ليس فى اتجاه الثورة ، وانما فى اتجاه الاخوان والاحزاب . وفى الجهة المقابلة كانت الثورة تقف

منغمسة في الخلاف حتى أذنيها. لقد حانت ساعة الصفر ، ومصر في مفترق الطريق . فإما الى الماضى . وإما الى .. ؟ الى أين ؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد !!

وهكذا كان عام ١٩٥٤ هو عام المواجه الحاسمة بين الثورة وأعدائها . أو بمعنى اخر بين عبدالناصر واعدائه . ولم يكن هؤلاء الأعداء الا كل احزاب مصر وعلى رأسها حزب الوفد والأخوان المسلمين والشيوعيون وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وعدد اخر من الضباط الاحرار !

ولم تكن هذه الجبهة ضد عبدالناصر بالمعنى السياسى للجبهة ، ولكنها كانت « هوجة » اشترك فيها الجميع .. وكل يغنى على ليلاه ! كان الشيوعيون يضغطون للاشتراك في السلطة . وكان الوفد يرفع شعار « لازعيم الا النحاس » !!

وكان الأخوان المسلمين يشعرون بغصة لاعتقادهم بأنهم هم الذين صنعوا عبدالناصر ، وأن عبدالناصر المتمرد الذى رفض الوصاية هو تمثال حي للغدر وعدم الوفاء ! بالاضافة الى انهم كانوا يشعرون في الوقت نفسه بانهم أقوى من عبدالناصر وانهم قادرون على الاطاحة به في أية لحظة ! وكان رجال احزاب الأقلية عملاء القصر الملكى والسفارة البريطانية يحلمون بالمجد القديم ويرغبون في اعادة العهد الذى ولى ! وكان بعض الضباط الأحرار الذين اشتركوا في الاعداد للثورة يشعرون بأنهم احق من عبدالناصر بالسلطة . وان الادوار التى وزعت عليهم أقل من الدور الذى قاموا به ! وكان اغلب هؤلاء قد اشتركوا في الثورة كلون من الوان المغامرة ، ولم يكن لهم اتجاه سياسى معين ، أو حتى مجرد استعداد لذلك !! وكان بعضهم قد اسرع صبيحة يوم الثورة للاستيلاء على مواقع حساسة في الدولة لم يكونوا يستحقونها . وقد تدخل عبدالناصر بقسوة في بعض الحالات لتصحيح الاوضاع كما حدث مع ضابط صغير احترف بعد ذلك مهنة الصحافة .

اذ حدث بعد أيام من قيام الثورة ان اقتحم وزارة الداخلية ونصب من نفسه مسئولا عنها . وراح يلقى التعليمات وينهر كبار الضباط ، ويصرخ في وجه كبار الموظفين ، الى ان استقال أحدهم بسبب المهانة البالغة التى ألحقها به مندوب القيادة !! وكان الموظف الكبير الذى استقال ، يدعى ابراهيم بك حبيب وكان يشغل منصب مدير عام التفتيش بالوزارة وهو ثالث منصب في الوزارة بعد الوزير والوكيل ، وكان الرجل حسن السمعة

شديد الاستقامة ومن عائلة من أشرف وأقدم عائلات مصر . ولذلك تساءل عبدالناصر عن سر استقالة الرجل .

فلما أجابه الذين سألهم : ان السبب هو السلوك السيىء لمندوب القيادة ! تساءل عبدالناصر بدوره : ومن هو مندوب القيادة ؟ وهنا اكتشف الجميع انه فرض نفسه على وزارة الداخلية بدون اذن من أحد ، وانه اصدر أوامر اعتقال وأوامر إفراج والحق البعض بالوظائف وأجبر البعض على الاستقالة دون أن يكون له أى حق فى هذا العمل على الاطلاق !! وهكذا انتهى الأمر بطرده وعودة ابراهيم بك حبيب الى منصبه فى الوزارة ! حالات كثيرة من هذا النوع تدخل فيها عبدالناصر وحسمها بحزم واحيانا بقسوة . وضحايا هذه الحوادث من الضباط الأحرار انضمت الى جبهة المعارضة ورفعت هى الأخرى شعار عودة الجيش الى الثكنات والسماح بعودة الأحزاب القديمة !

وفى هذه الظروف الحالكة اثبت عبدالناصر انه مهندس سياسى من طراز رفيع . اعلن قبوله بكل طلبات المعارضة ، وسمح بقيام الأحزاب القديمة ، وحدد موعدا لأجراء الانتخابات . وهكذا وضع عبدالناصر المعارضة ضده تحت الأضواء . واستطاع بحركة ذكية كشف الأعداء المرتدين ملابس الاصدقاء . وقبل الموعد المحدد للانتخابات ، وبينما الكل منهمك فى الاعداد لها حدث الاضراب الكبير الذى قاده اتحاد العمال ، وسيذكر التاريخ لبضعة افراد قلائل دورهم المشرف فى تلك الفترة ، وهو الدور الذى حافظ على الثورة ، ووجه ضربة قاصمة الى بقايا العهد القديم . من بين هؤلاء عامل فى شركة الترام اسمه صاوى احمد صاوى . وقد لقى جزاء سنمار بعد ذلك واختفى فى زحام الحياة !! ثم الطحاوى وطعيمة وهما من رجال الصف الثانى من تنظيم الضباط الأحرار ، وكمال حسين من مجلس قيادة الثورة ، وضابط بوليس يدعى صلاح الدسوقى ، والغريب فى الأمر ، انه فى تلك الأيام وقف جميع الصحفيين المصريين فى الجبهة المعادية لعبدالناصر ولم يقف الى جانبه الا مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل !

وهكذا استطاع عبدالناصر محاصرة جميع أعدائه وسحقهم بضربة واحدة . واستطاع ان يصفى حساباته مع الجميع وخصوصا مع الصحافة . فقد قامت محكمة الثورة على الفور ، واختار نخبة من رجال السياسة القدامى وقدمهم للمحاكمة ، وكان على رأس هؤلاء فؤاد سراج الدين ومحمود سليمان غنام من الوفد ، ثم قامت محكمة الشعب حيث أعدم سبعة من رجال الأخوان المسلمين . وصدر قرار بوقف جريدة المصرى عن

الصدور ، وهرب صاحبها محمود أبوالفتح ورئيس تحريرها أحمد ابوالفتح الى الخارج ! وأغلقت جريدة الجمهور المصرى وزج بصاحبها فى السجن لمدة خمسة عشر عاما ، ودخل إحسان عبدالقدوس واسماعيل الحبروك السجن الحربى .

وبعد ذلك استطاع عبدالناصر إحكام قبضته على السلطة ودانت له مصر .

ولذلك ، سيظل عام ١٩٥٤ واحدا من أخطر الأعوام فى تاريخ مصر . فها هو عام الثورة الحقيقى . وفيه دخلت مصر عصرا جديدا وهو الذى انتهى بها الى تحقيق المعجزات ولولاه لما كان انتصار ١٩٥٦ ، ولا كانت الوحدة ، ولا كانت الاشتراكية ، ولولاه لما كانت مصر القومية والعربيه وزعيمة العالم الثالث ومفجرة الثورات فى كل مكان !

لقد كان عام انتصار عبدالناصر ، ولذلك كان أعظم وأمجد الأعوام .

□ ■ □

« تمت »

محتـويات الكتـاب



محمود السعدنى

... سوف تكون هناك الف شهادة على هذا العصر العاصف الذى نعيشه ، ولكن تبقى شهادة محمود السعدنى وثيقة وحدها صادقة أصيلة تفيض حيوية ومصرية ، شهادة ابن الشعب والحارة الذى قامت له الثورة وعاشت بصموده والولد الشقى لا يشهد الاحداث عن بعد ، ولا يتجنبها أويتقى شرها ولكنه يندفع ويشارك ويزج بنفسه ويحشر انفه فى كل مشكلة ويقحم نفسه فى كل مظاهره أو خناقة ولابد له ان يتكعبل احيانا وان يدفع ثمن شقاوته .

محمد عوده

أخبار اليوم

(مطابع الأخبار)